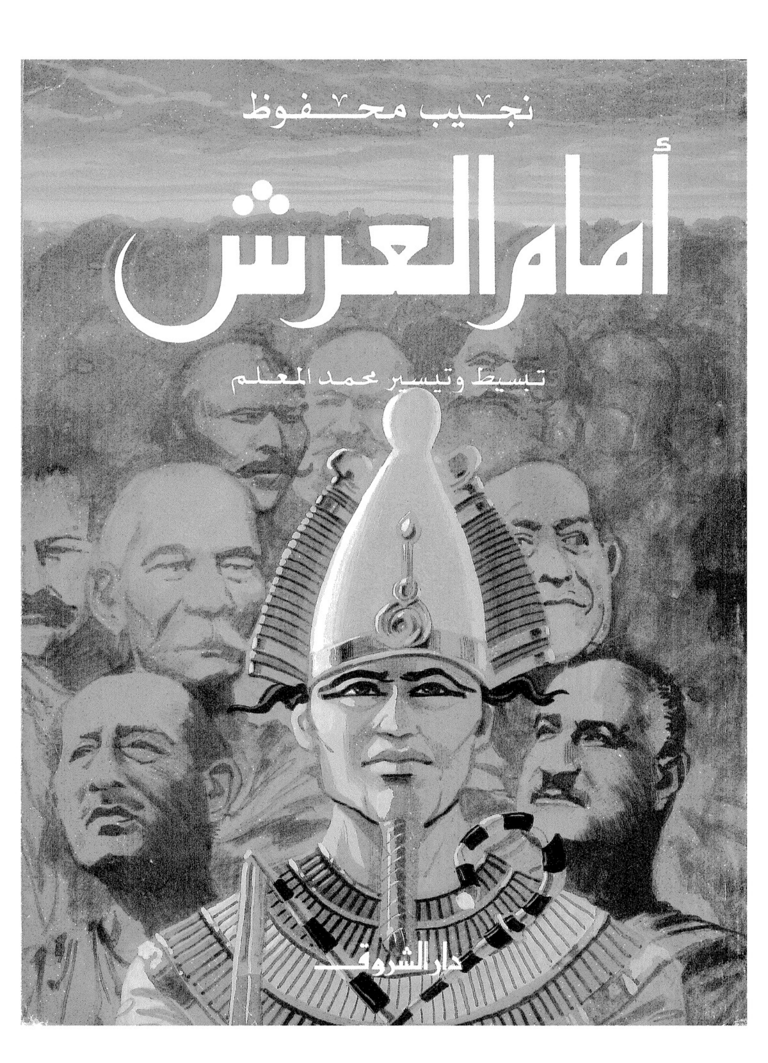

نجيب محفوظ
أمام العرش
تبسيط وتيسير محمد المعلم
دار الشروق

أمام العرش

ميسرة ومبسطة

رواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ ،
نقدمها بنفس لغتها ميسرة للناشئين ،
ليقرأوها بفهم تام ، واستمتاع بأحداثها كاملة ،
وسعادة بتجاوزهم قراءة القصة إلى قراءة الرواية .



الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

نجيب محفوظ



تيسير وتبسيط محمد المعلم

الغلاف والرسوم : مصطفى حسين

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

شخصيات المحكمة

أوزوريس : معبود مصرى قديم . نشر الخير فى البلاد ، وعلّم الناس الزراعة . وحسب العقيدة المصرية القديمة ، عندما انتقل إلى العالم الآخر ، كان يحاكم الموتى .

إيزيس : زوجة أوزوريس ، وشريكته فى نشر الخير فى البلاد .وكانت رمزا للأمومة والإخلاص .

حورس : ابن أوزوريس وإيزيس . ورث عرش أبيه على الأرض .وأصبح رمزا للملوك الفراعنة .

١

انعقدت المحكمة بهيئتها المقدسة فى قاعة العدل . وكانت جدران القاعة عالية ، ومنقوشة بالرموز الإلهية ، وسقفها مذهبا .. تسبح فى سمائه « أحلام البشرية » .

وفى الصدر ، كان أوزوريس يجلس على عرشه الذهبى ، وإلى يمينه إيزيس تجلس على عرشها ، وإلى يساره حورس على عرشه . وعلى بعد قليل من قدميه ، تربّع تحوت كاتب الآلهة ، وأسند الكتاب الجامع إلى ساقيه المضمومتين .

وعلى جانبى القاعة ، صفت الكراسى المكسوة بقشرة من الذهب الخالص ، تنتظر الذين سيكتب لهم الخلاص من القادمين .

وقال أوزوريس :

ـ كُتِب على البشرية منذ القدم ، أن تصحبهم حياتهم فى الدنيا عند عبورهم عتبة الموت ، وتتبعهم ، كالظل ، حاملة أفعالهم ونواياهم ، وتتجسّد كلها فوق أجسامهم العارية .

وقد تقرر أن تكون هذه الساعة هى ساعة الحساب الفاصلة ، لمن حكموا مصر أو كان لهم دور فى تاريخها ..

فانعقدت هذه المحكمة ، لتقوم بسباحة طويلة عبر الزمن ، منذ بدأ تاريخ مصر القديم .. وتقدم ـ عبر تلك السباحة ـ نماذج من الحكام والأفراد ، وتصدر حكمها فيهم ، بعد أن تحسب لهم ما قاموا به ، وتحسب عليهم ما كان يؤخذ عليهم .

* * *

وأشار أوزوريس إلى حورس . فصاح الشاب بصوت جهورى :

ـ الملك مينا .

ودخل من الباب فى آخر القاعة ، رجل متلفع بكفنه ، عارى الرأس ، حافى القدمين . وأخذ يقترب بجسمه القوى ، وملامحه الواضحة ، حتى وقف على بعد ثلاثة أذرع من العرش ، فى خشوع كامل .

وأشار أوزوريس إلى تحوت كاتب الآلهة . فراح يقرأ من الكتاب :

ـ أعظم ملوك الأسرة الأولى . حارب الليبيين وانتصر عليهم . هاجم مصر السفلى وضمها إلى مملكته الجنوبية ، وأعلن نفسه ملكا على مصر كلها ، وتوّج رأسه بتاج مزدوج . حوّل مجرى النيل وأنشأ مدينة منف على الأرض التى نتجت عن التحويل .

وقال أوزوريس ، مخاطبا مينا :

ـ هات ما عندك .

فقال الملك مينا :

ـ لخّص تحوت كاتب الآلهة حياتى فى كلمات . ولكن ما أسهل الكلام وأشق العمل .

فقال أوزوريس :

ـ لنا رؤيتنا فى تقييم الرجال والافعال . فلا تبدد الوقت فى الثناء على نفسك .

فقال الملك مينا :

ـ ورثت مملكة الجنوب من أسرتى . وورثت معها حلما كبيرا : تطهير البلاد من الغرباء ، وإقامة وحدة أبدية بين مملكتى الجنوب والشمال . وكان صوت عمتى أوز أقوى محرك لاشعال ذلك الحلم الكبير . كانت تنظر إلىّ باشفاق وتقول :

ـ أتقضى عمرك فى الأكل والشرب والصيد ؟ .

أو تقول بكبرياء :

ـ لم يعلمنا أوزوريس الزراعة ، لنقتتل حول توزيع ماء الفيضان .

وقلت لزوجتى المحبوبة ، إننى أشعر بجذوة تتقد فى صدرى ، ولن تبرد حتى أحقق الحلم . ووجدتها زوجة رائعة . قالت لى بحماس :

ـ لا تدع الليبيين يهددون عاصمتك ، ولا تدع الناس يقسمون الأرض التى وحدها النيل .

وانكببت على تدريب الرجال الأشداء ، وصليت إلى الآلهة ، لتهبنى الرضا والنصر ، حتى تحقق ، على يدىّ ، الحلم الذى راود آبائى وأجدادى .

فقال أوزوريس :

ـ أزهقت من أرواح الليبيين مائة ألف ! .

ـ كانوا المعتدين يامولاى .

ـ ومن أرواح المصريين شماليين وجنوبيين ، مائتى ألف .

ـ راحوا فداء للوحدة .. ثم حل الأمن والسلام ، وتوقف نزيف الدم الموسمى بسبب النزاع حول النيل .

فسأله أوزوريس :

ـ لماذا لم تقنع قومك بالكلمة ، قبل اللجوء إلى السيف ؟ .

ـ فعلت ذلك مع جيرانى ، وانضم بعضهم دون قتال . ولكن حقق السيف فى أعوام ما لم تحققه الكلمة فى أجيال .

ـ يقدم كثيرون هذا المنطق ، ليغطوا إيمانهم بالعنف .

فقال مينا بحرارة :

ـ استحوذ على مشاعرى مجد مصر وأمنها .

ـ ومجدك الشخصى أيضا .

فقال الملك مينا بتسليم :

ـ لا أنكر ذلك . ولكن الخير عمّ البلاد .

ـ وكان لأسرتك وأعوانك النصيب الأكبر منه . وللفلاحين الحد الأدنى .

ـ مضى أكثر عهدى فى القتال والبناء . فلم أنعم بحياة القصور . ولم أهنأ بلذيذ الطعام والشراب . ولم أمس من النساء إلا زوجتى . وكان لابد من مكافأة الأعوان على قدر أعمالهم .

وطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :

ـ مولاى ، أنت تحاكم بشرا لا آلهة . وكفى هذا الرجل الشجاع أنه زهد فى

النعيم والكسل . فطهّر البلاد من الدخلاء ، ووحد مصر ، فأطلق قوتها الكامنة ، وكشف عن خيراتها المطمورة . ووفر للفلاحين الأمن والسلام . إنه ابن اعتز ببنوته .

وصمت أوزوريس قليلا ، ثم قال :

ـ أيها الملك ، اتخذ مجلسك على أول كرسى فى الجناح الأيمن .

فمضى الملك مينا إلى كرسيه . وأدرك أنه أصبح من أهل النعيم فى العالم الآخر .

٢

وصاح حورس :

ـ الملك زوسر ووزيره أمحتب .

وجاء من الباب فى آخر القاعة رجلان .. أولهما وسيط القامة متين البنيان . وثانيهما نحيل أميَل إلى القصر . وكلاهما متلفع بكفنه ، عارى الرأس ، حافى القدمين . تقدما نحو العرش حتى مثلا بين يدى أوزوريس .. الملك ووراءه الوزير .

فقال أوزوريس مخاطبا أمحتب :

ـ تقدم ، وقف فى محاذاة الملك . فلا فرق فى هذا المكان بين ملك ورعية .

فصدع أمحتب بالأمر . وراح تحوت يقرأ صفحة جديدة .

ـ الملك زوسر ، أسس الأسرة الثالثة ، غزا النوبة ، اكتشف مناجم النحاس فى الصحراء الشرقية ، بنى الهرم المدرج .

والوزير أمحتب ، حكيم حفظت الأجيال حِكَمه ، وبرع فى الطب والفلك والسحر والهندسة ، وقدّسه الناس بعد وفاته بمئات السنين .

ودعا أوزوريس الملك زوسر للكلام ، فقال :

ـ ورثت مملكة موحدة ، مترامية الحدود ، وفيرة الخيرات ، تحب السلام ، ولكن يطمع فيها المحيطون بها . فابتكرت سياسة لنفسى ، ولمن يجىء بعدى ، تقوم على أن الدفاع عن مصر يتطلّب غزو القاطنين ورام حدودها . ولما كانت النوبة هى أكثر البلاد التى تتسلل إلى وطنى ، فقد قررت توسيع الحدود الجنوبية ، بغزو النوبة الشمالية ، وإقامة معبد للإله فيها .

وعرف أمحتب ، بعلمه وسحره ، الكنوز المخبوءة فى الصحراء الشرقية . فأرسلت البعثات لاستكشاف بطن الأرض . فعثرنا على مناجم النحاس ، ووجدنا فيه منافع قيمة فى السلم والحرب . وتكاثر الخير. فشيدت الهرم المدرج . كما شجعت العلوم وكافأت النابغين فيها ، ومضت الأيام فى عهدى ، تحمل لمصر التقدم والقوة .

ودعا أوزوريس أمحتب للكلام ، فقال :

ـ نشأت أحب العلم والمعرفة . ودرست على كهنة منف العظام ، فحصلت على أعلى الدرجات فى الطب والهندسة والفلك والسحر والحكمة . ولما علم الملك بتفوقى ، دعانى إلى العمل فى حاشيته ، رغم انتمائى إلى الشعب الفقير. فأثبت جدارتى فى كل ما كلفنى به . فولّانى الوزارة . وعهد إلىّ ببناء الهرم ، فكان تحفة البناء فى عصره .

قال أوزوريس للملك زوسر :

ـ غزوت النوبة دون أن تبدر منها أى بادرة اعتداء على حدود مملكتك .

فقال الملك زوسر :

ـ قلت يامولاى ، إننى اهتديت إلى فكرة الدفاع عن الحدود بغزو القائمين وراءها .

ـ نظرية لا يقول بها إلّا قوىّ يضمر العدوان ..

ـ كان واجبى الأول أن أدفع عن بلادى أى أذى محتمل .

ـ وشيدت معبدا للإله ، وخصّصت له أراضى كان ينتفع منها الفقراء .

ـ ولكن للمعابد حقوقا فوق كل الحقوق .

ـ كلام غير مقبول ، إذا لم تراع الظروف والملابسات .

ولاذ الملك بالصمت ، فقال أوزوريس :

ـ ولم توفّر الرعاية الكافية لعمال المناجم ، فهلك منهم كثيرون .

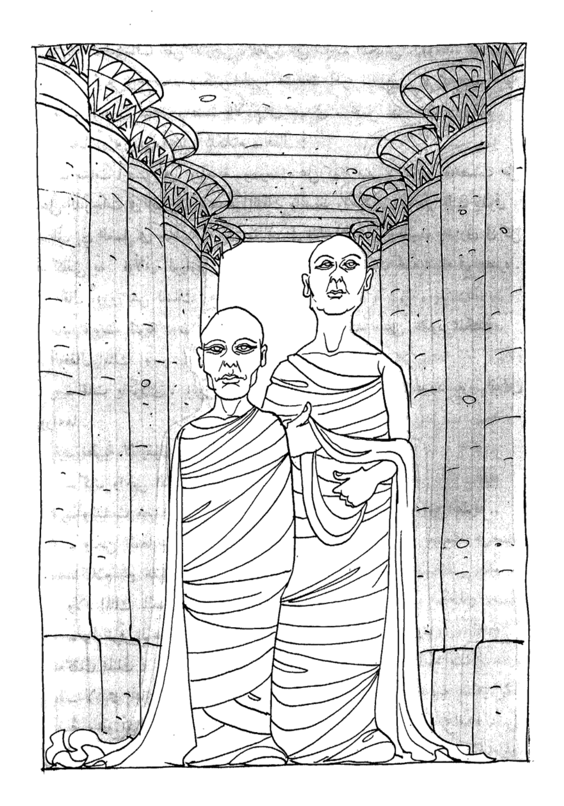
فقال الملك :

ـ لا يتم إنجاز عمل كبير بدون تضحية وضحايا .

ثم وجه أوزوريس الخطاب إلى الوزير أمحتب ، وقال :

ـ حدثنى : ماذا كان موقفك من سياسة الملك ؟ .

فقال الوزير أمحتب :



ـ كان رأيى أن العلاقات التجارية أفضل نتيجة من الغزو ، لتأمين الحدود . وأن نفقات المعبد يجب أن تؤخذ من مصر ، ويعفى منها أهالى النوبة الفقراء . كما رجوت ألا نرسل البعثات إلى الصحراء الشرقية ، قبل أن نوفر لها الرعاية الطبية والتدريب الكافى . ولكن الملك ، كان متلهفا على تحقيق الأمان والرخاء لمصر وأهلها .

فقال له أوزوريس :

ـ لا تحاول الدفاع عن غيرك .. وحسبك الدفاع عن نفسك .

فطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :

ـ زوسر ملك عظيم رغم هفواته . وأمحتب ابن عزيز تتشرف به أمّة ..

وهنا قال أوزوريس :

ـ أيها الملك ، سأكتفى بلومك . فاجلس أنت ووزيرك بين الخالدين .

فجلس زوسر إلى يمين مينا . وجلس أمحتب إلى يمين زوسر .

٣

ونادى حورس :

ـ الملك خوفو .

فجاء الملك بقامته المتينة المائلة للطول ، عارى الرأس ، حافى القدمين ، متلفعا بكفنه ، حتى مثل أمام العرش بخشوع .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ الملك خوفو ، رأس الأسرة الرابعة ، صاحب الهرم الأكبر ، نظم الإدارة تنظيما لم نعرفه من قبل ولا من بعد . وفى عهده ، فاضت الأرض بالخيرات ، وعمرت الأسواق ، وبلغت الزراعة والصناعة والفنون أقصى درجات الرفعة . وانطلقت هيبة فرعون فى الآفاق ، ساطعة كالشمس ، فهابتها القبائل وشمل السلام البقاع والناس .

ودعا أوزوريس الملك للكلام ، فقال :

ـ فُتِنت منذ صغرى بالدقة والنظام . وآمنت بأنه يجب أن يكون لكل نشاط

قوانين وتقاليد ، لا فرق فى ذلك بين الشرطة والنحت أو العمارة أو الحياة الزوجية . وأصبحت مصر مجموعة من التقاليد السامية والنظم الدقيقة . وهو ما أعاننى على تشييد أعظم بناء عرفه الإنسان . اشتركت فيه الألوف المؤلفة على مدى عشرين عاما ، فلم يتسلّل إليه اضطراب أو إهمال ، ولم يحرم أحد من العاملين فيه من العناية والرعاية ، ولم يغب فى الوقت نفسه عن عين الرقابة الساهرة . هكذا خاض قومى تجربة فذة ، بنجاح مثالى ليس له نظير.

فسأله أوزوريس :

ـ هل سخرت أمتك لبناء قبر لك ؟ .

فقال الملك خوفو :

ـ لو أردت قبرا لحفرته فى الجبل ، بعيدا عن الأعين الطامعة . ولكنى شيدت رمزا للخلود الإلّهى ، يحوى من الأسرار ما لا يحيط به عقل بشر. وقد تنافس الناس فى العمل به . فأقمت لهم مدينة كاملة ، وسعيدة ، ومقدسة . وكان الجهد يبذل من أجل الإله وحده . كان عملا يليق بالاحرار لا العبيد ! .

والتفت أوزوريس إلى الجالسين إلى يمينه ، الذين كتب لهم الخلود السعيد فى العالم الآخر ، وقال :

ـ يُسمح بالكلام لمن يشاء .

فقال الملك مينا :

ـ عمل مجيد ، يذكرنى ببناء منف العظيمة ، التى لم يمهلنى العمر لأتمّها .

وقال الملك زوسر :

ـ كان الأفضل ، توجيه القوة المتوفرة للغزو وتأمين الحدود .

فقال الملك خوفو :

ـ كانت خيرات البلاد المجاورة تأتينى بلا قتال . وكان حرصى على أرواح رعيتى لا يقل عن حرصى على المجد والخلود .

فقا له أوزوريس :

ـ ولكنك أزهقت روحا بريئة ، عندما تنبأ لك رجل بأن عرشك سيرثه طفل ليس من سلالتك .

ـ على الملك أن يدافع عن عرشه ، دفاعه عن وحدة أمته . وفى سبيل ذلك .. يصيب ويخطئ .

ـ ألم تكن فى ذلك تتحدى إرادة الإله ؟ .

ـ نحن نفعل ما نراه واجبا . ويفعل الإله ما يشاء .

وطلبت إيزيس الكلمة ، وقالت :

ـ هذا ملك منير ، مثل الشمس ، فى سماء العروش . وكم من امبراطوريات تلاشت ، وبقى هرمه شامخا . وكثيرا ما كانت عظمته مثار حسد لدى العاجزين من بنى وطنه ومن الغرباء .

وعند ذلك قال أوزوريس :

ـ اجلس أيها الملك على كرسيك بين الخالدين .

٤

ونادى حورس :

ـ الحكيم بتاح حتب .

فدخل رجل نحيل صغير الجسم وقور ، لم يقلل من وقاره عرى رأسه وعرى قدميه . وتقدم على مهل ، حتى مثل فى أدب ، أمام العرش .

ومضى تحوت كاتب الآلهة يقرأ :

ـ الحكيم بتاح حتب ، عاش مائة وعشرة سنوات . عمل وزيراً للملك أسيسى ، أحد ملوك الأسرة الخامسة . له وصايا قيمة ذائعة الصيت .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ تلقيت العلم فى معبد بتاح . وظهر تفوقى منذ صباى . وعملت كاهنا مدة من الزمن ، حتى اختارنى الملك وزيرا له . وكانت أيام المجد والعظمة قد زالت ، وكأنها لم تكن . وتولّى العرش ملوك ضعاف لا قوة لهم ولا حكمة . شغلتهم أهواؤهم عن البناء والتدبير وتحقيق الأهداف . فقوى نفوذ الكهنة . وطمع حكام الأقاليم فى السلطة والمكاسب والمآرب .

فعانى الفلاحون من الظلم والهوان ، وارتفعت أنات الشكاوى ، وأصبحت الحياة قاتمة .

ودأبت على تأمل الأحوال بمرارة ، وأذهلتنى العلاقة المبهمة بين الآلهة والناس . ولم أقصّر فى إبداء المشورة . ولكنها ضاعت وسط التسيب والأنانية . ولما بلغت العاشرة بعد المائة ، استدعانى الملك ، وأمرنى أن أضع كتابا أجمع فيه مختارات من وصاياى .. ففعلت .

فقال له أوزوريس :

ـ أسمعنا بعضا من وصاياك .

فقال بتاح حتب :

ـ إذا دعاك كبير إلى طعام ، فاقبل ما يقدمه لك ، ولا تتكلم إلا عندما يسألك .

ـ ما سر اهتمامك بآداب المائدة فى وصاياك ؟ .

فقال بتاح حتب :

ـ قصدت فى الظاهر آداب المائدة ، ولكنى فى الحقيقة قصدت التعريض بجشع الكهنة ، الذين كانوا يطالبون بالمزيد من الأوقاف والمخصصات ، ويتخمون بالمآكل والمشارب .

فقال أوزوريس :

ـ أسمعنا مزيدا من وصاياك .

فقال بتاح حتب :

ـ لا تخن من ائتمنك ، لتزداد شرفا ويعمر بيتك . وقصدت حكام الأقاليم ، الذين دأبوا على بسط نفوذهم ، متحدّين وحدة المملكة .

وهنا تساءل الملك مينا :

ـ هل نسوا الدماء التى سفكت فى سبيل الوحدة .

فقال الملك خوفو :

ـ وكيف استهانوا بالتقاليد والأخلاق التى تقدست فى عهدى .

وأشار أوزوريس إلى الحكيم بتاح حتب ليواصل حديثه ، فقال :

ـ قلت أيضا « إذا دخلت منزل غيرك ، فاحذر أن توجه ذهنك إلى مخدع

نسائه ، فكم هلك أناس من جراء ذلك » ..

وقد قلت ذلك بناء على ماذاع عما يجرى فى حريم القصر.

فسأله أوزوريس :

ـ ألم يكن الملك يسىء معاملة حريمه ؟

ـ من أجل ذلك قلت أيضا : « إذا كنت عاقلا ، فدبّر منزلك وأحب زوجتك ، شريكتك فى حياتك ، وقدّم لها الطعام والملابس ، وأحضر لها العطور ، وأدخل عليها السرور ، ولا تكن شديدا معها ، فباللين تملك قلبها ، وأدّ مطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك .

فقال أوزوريس :

ـ أسمعنا وصية موجهة للجميع .

ـ لا تترك التزيّن بزينة العلم ودماثة الأخلاق .

فقال الملك مينا :

ـ لم يكن فى عصرى حكماء ، ومع ذلك حرر الرجال أرضهم ووحدوا مملكتهم . وهاهو عصر انحلال وفساد ، لم يتمخض عن فعل شىء ذى قيمة ، ولكنه ترك بعض الكلمات الجميلة . فما جدوى الحكمة ؟ .

فاعترض خوفو قائلا :

ـ الحكمة تعيش كالهرم وأكثر.

وقالت إيزيس :

ـ لا تقللوا من قيمة ابنى الحكيم . نحن نحتاج إلى الحكيم فى عصور التدهور ، كما نحتاج إلى الطبيب فى أيام الأوبئة .

وسيظل للكلمة الطيبة توهجها على الدوام .

وأخيرا قال أوزوريس :

ـ اذهب أيها الحكيم إلى كرسيك بين الخالدين .

٥

وصاح حورس بصوته الجهورى :

ـ ثوار فترة الظلام ، الممتدة ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى .

فدخلت جماعة متفاوتة الأشكال والأحجام . ومضت فى أكفانها عارية الرءوس حافية الأقدام ، حتى مثلت فى صف واحد أمام العرش .

وتلا تحوت كاتب الآلهة صفحة جديدة :

ـ هؤلاء هم رءوس الثورة ، قادوا الجماهير الغاضبة فى ثورة دموية مخربة ، ثم حكموا البلاد عهدا طويلا ، امتد ما بين سقوط الدولة القديمة وقيام الدولة الوسطى . ولم يتركوا وراءهم أثرا يدل عليهم ، إلا المعابد المهدّمة والقبور المنهوبة والذكريات المرعبة .

فقال أوزوريس :

ـ رشحوا من يمثلكم للكلام .

فأشاروا إلى رجل نحيل طويل ، جامد الوجه كأنما شقّ من صخر .

وقالوا :

ـ أبنوم ، فهو أول من دعا إلى العصيان والقتال .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال أبنوم :

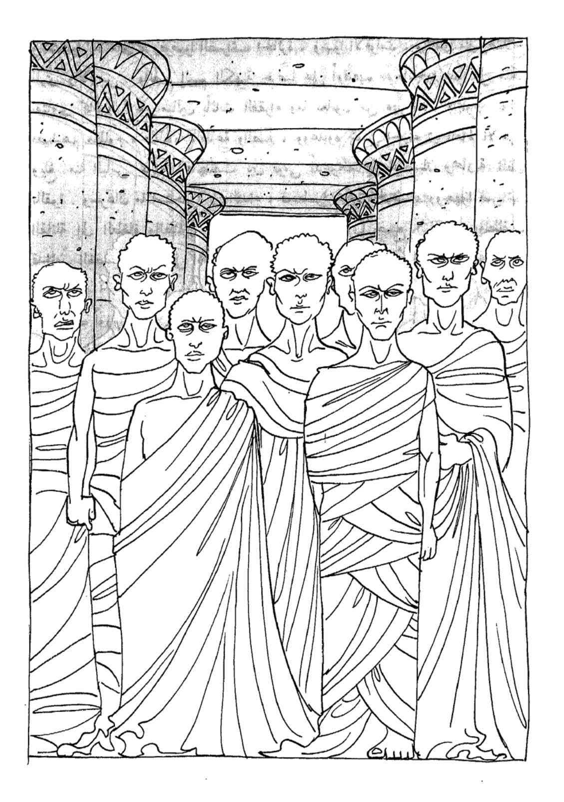
ـ تجاهل التاريخ أسماءنا وأفعالنا . فهو تاريخ يدونه الخاصة . ونحن من عامة الفلاحين والصناع والصيادين . ومن عدالة هذه القاعة المقدسة أنها لا تُغفل أحدا . وقد تحملنا من الآلام فوق ما يتحمل البشر . ولما انصب غضبنا الثائر على عفن الظلم والظلمة ، نعتوا ثورتنا بالفوضى ونعتونا باللصوص . وما كانت إلا ثورة على الطغيان ، باركتها الآلهة ..

فسأل خوفو :

ـ كيف تبارك الآلهة العدوان على المقدسات ؟ .

فقال أبنوم :

ـ بدأت المأساة بضعف الملك بيبى الثانى وعجزه ، لكبر سنه ، وعدم معرفته بما



يجرى حوله ، وتصديقه لأكاذيب المنافقين له . فاستقل حكام الأقاليم بأقاليمهم ، واستبدوا بالأهالى ، وفرضوا الضرائب الجائرة ، ونهبوا الأقوات ، وأهملوا أى إصلاح للرى والأرض . وانضم إليهم الكهنة حرصا على أوقافهم ، فأباحوا لهم كل منكر بفتاوى كاذبة ، غير مبالين بأنات الفقراء وما يعانون من قهر وذل وجوع . وكلما قصدهم مظلوم ، طالبوه بالطاعة والصبر ، ووعدوه بحسن الجزاء فى العالم الآخر . وبلغ منا اليأس غايته . فانطلقت بين قومى أدعوهم إلى العصيان ومحاربة الظلم بالقوة . وسرعان ما استجابوا إلى النداء ، فحطموا حاجز الخوف ، ووجهوا ضرباتهم القاتلة إلى الطغاة والظالمين . وسرت النار المقدسة إلى جميع البلاد ، وانطلقت قذائف الغضب الثائر على الحكام والموظفين ورجال الدين . ثم استولينا على مقاليد الحكم .

فقال أوزوريس :

ـ أما قرأت أشعار إيبوور الحكيم التى ترثى المقدسات وما حل بالصفوة وضياع القيَم فى عهدكم ؟ .

فقال أبنوم :

ـ كان أيبوور شاعرا حقا ، ولكنه كان ينتمى إلى طبقة السادة الظالمين . ففاضت دموعه حزنا على الطغاة ، وعظُم عليه أن يَحل محلهم أبناء الشعب .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ أنت تتحدث ياأبنوم ، من منطلق حقد أسود . وهو إثم كبير .

فقال أبنوم :

ـ السادة الظالمون هم الذين زرعوا فى صدورنا هذا الحقد .

فقال الملك زوسر :

ـ ما أسمع .

ـ عجيب ، وحق الآلهة ، ما أسمع . ما مصر إلا « مركَّب » من تقاليد مقدسة ، إذا اختل منه عنصر تطاير البناء وتفتت . ففرعون هو الإله المجسد . والصفوة هم نوابه الذين يعكسون نوره . والموظفون هم أتباعه المبلغون لرسالته . فكيف يحل مكان كل هؤلاء ، قوم من الفلاحين والصناع والصيادين ؟ .

فقال أبنوم :

لقد حلوا محلهم بالفعل ، وأثبتوا أنهم خير منهم . وأثبتوا أن الآلهة تتجسد فيمن يرفع راية العدل والرحمة ، أيًّا يكون ..

فهتف الملك زوسر :

ـ يالك من وقح ! .

فالتفت إليه أوزوريس قائلا :

ـ لا اسمح بتجاوز الأدب فى المناقشة . اعتذر .

فقال زوسر فى خشوع :

ـ أقدم المعذرة والأسف .

فقال أوزوريس مخاطبا الجالسين على كراسى الخلود :

ـ تسمح المحكمة لكم بالمناقشة ، ولكن فى حدود الأدب .

وتذكروا جيدا أنكم ستناقشون أناسا جدّت لهم معتقدات غير معتقداتكم .

ثم التفت إلى أبنوم ، وقال :

ـ كان عهدكم عهد ظلام . فلم يترك آثارا ولا وثائق ؟ .

فقال أبنوم :

ـ ذلك من فعل المؤرخين وإغفالهم لنا . لقد أقام الفلاحون حكومة من أبنائهم ، حكمت البلاد ، فاستتب الأمن ، وانتشر العدل ، وامتد ظل الرحمة . شبع الفقراء ، وتلقوا العلم والمعرفة ، وتولوا أكبر المناصب . وقامت دولة لا تقل فى عظمتها عن دولة الملك خوفو . ولكنها لم تبدد المال فى بناء الأهرامات ولا فى الحروب . وأنفقته فى النهوض بالزراعة والصناعة والفنون وتجديد القرى والمدن . ولما رجعت مصر بعدنا إلى عصر الملوك ، أحرقوا وثائق البردى المسجلة فيها أعمالنا .

فقال الملك خوفو :

ـ غابت عنك الحكمة من بناء الهرم .

وقال الملك زوسر :

ـ وغابت عنك الحكمة من إعلان حرب لغزو بلد على الحدود .

فقال أبنوم :

ـ كان شعارنا أن تربية فلاح خير من بناء معبد .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ نطقت بالكفر .

فقال أبنوم :

ـ ليس الإله بحاجة إلى معبد . ولكن الفلاح بحاجة إلى التربية . من أجل دلك باركتنا الآلهة ، فحكمنا مئات السنين فى سلام ورخاء .

فسأل الملك زوسر :

ـ إذن فلماذا انهارت مملكتكم .

ـ انهارت عندما نسى الحكام أصلهم الذى نشأوا فيه ، وتوهموا أنهم منحدرون من صلب « رع » ، فأصابهم التكبّر ، وتسلّل إليهم الظلم ، فنزل بهم ما ينزل بكل ظالم .

فقال أوزوريس :

ـ تخلل ثورتكم ارتكاب جرائم فاضحة لا يقرها دين أو خلق أو قانون .

فقال أبنوم :

ـ أشهد أمام عدالتكم بأننى لم آمر بها ، ولم يبلغنى خبر عنها ..

وهنا قالت إيزيس :

ـ أقر لهذا الابن بأنه من أحكم أبنائى وأنبلهم . سعدت بلادى فى عهدهِ سعادة لم تذقها من قبله ولا من بعده .. وإيمانه يشهد له بالصدق والتقوى . أما ما ارتكب من جرائم فى ثورته ، فلا تخلو الجماهير الثائرة من مجرمين يندسون فى جموعها ، يشبعون نزواتهم .

وفكر أوزوريس وقتا ثم قال :

ـ اذهبوا ياسادة إلى مجالسكم بين الخالدين .

٦

ونادى حورس :

ـ الملكة حتشبسوت .

فدخلت امرأة متوسطة القامة ، مليئة البناء ، ومضت فى كفنها حتى مثلت أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ مضى عصرها فى سلام ورخاء . وقد شيدت معبد الدير البحرى . وأحيت الصلات ببلاد نبت ، وأحضرت منها شجرة المر ، وغرسته فى ساحة المعبد . وانهالت عليها الجزية من البلاد التابعة لمصر ، فانتشر الثراء ورضى الناس .

ودعاها أزوروريس إلى الكلام ، فقالت :

ـ كنت الوحيدة المستحقة لعرش أبى تحتمس الأول . فأنا آخر من بقى من ذرية الملكة أحعموس ، ودمائى ملكية إلهية بخلاف أخى تحتمس الثانى ، الذى كان ابنا لزوجة غير شرعية تدعى موت نفرت ، وأخى تحتمس الثالث الذى كان ابنا لمحظية تدعى إزيس .

وقد اضطررت للزواج من تحتمس الثالث ، احتراما لتقاليد بالية ، تستعْيب حكم النساء . وعمل كاهنا فى معبد آمون . ولم يكف عن المكايد للوصول إلى العرش . وعاونه على ذلك كهنة آمون . وقد تغلّب علينا أخى تحتمس الثانى بفضل تنظيم حزبه ، وانتزع الملك منا . ولما مات عاد الحكم إلىّ ومعى تحتمس الثالث . وقد فرضت حصارا حوله من الرقابة ، لابطال مكائده ، فانزوى فى الظل لا قيمة له . واستعنت برجال من أكفأ الرجال وأعظمهم . ووهبت للناس عصرا ذهبيا من السلام والرخاء ، حتى آمنوا بالمرأة وقدرتها على الحكم ..

فقال أبنوم :

ـ فى عهدنا الذى دفنتموه فى الظلام ، حكمت ملكتان عظيمتان .

وسألها الحكيم أمحتب :

ـ ولماذا لم تدعّمى عرشك بإشراك أخيك فى الحكم ؟ .

فقالت حتشبسوت :

ـ لم يكن مثلى من سلالة الشمس . وكانت سابقته فى تدبير المكائد لى ، أوجبت علىّ الحذر منه . وقد أشاروا علىّ باغتياله ، ولكننى كرهت الغدر وسفك الدماء .

فقالت إيزيس :

ـ ابنة تفخر بها أى أم . وليست فى حاجة إلى دفاع .

وقال أوزوريس :

ـ إلى كرسيك بين الخالدين .

٧

ونادى حورس :

ـ الملك تحتمس الثالث .

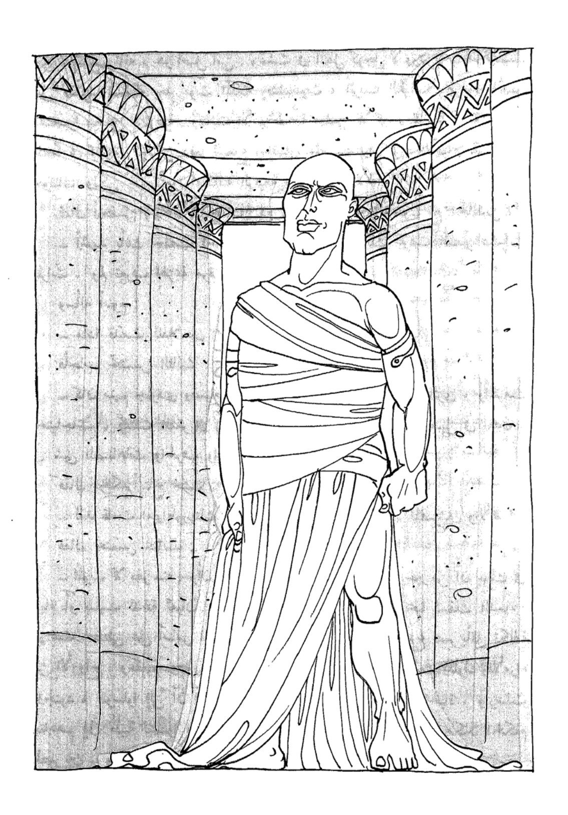
ودخل رجل قصير القامة ، متين البنيان ، تنطق معالم وجهه بالجلال . فتقدم متلفعا بكفنه ، حتى مثل فى خشوع أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تولى العرش عقب وفاة حتشبسوت . فطهّر الإدارة من خصومه ، وقبض على النظام بيد من حديد . أكرم كهنة آمون ، ووضعهم فى منزلة السيادة ، على غيرهم من الكهنة وأعد جيشا وأسطولا لم تعرف البلاد لهما نظيرا من قبل . وخاض غمار حروب عديدة ، تمخضت عن إنشاء أكبر امبراطورية شهدها العالم القديم حتى وقته ، وخضعت لسلطانها آسيا الصغرى وأعالى الفرات وجزر البحر ومستنقعات بابل وليبيا وواحات الصحراء وهضاب الصومال وشلالات النيل العليا . فاصبحت مصر ملتقى الأجناس من جميع الأمم ، ومستودع الخيرات والسلع . وأقام المعابد والحصون والمسلات فى مصر وجميع البلاد التابعة لها . وترك وراءه وطنا يتربع فوق قمة العظمة والحضارة .

فدعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ ذقت الظلم فى مطلع حياتى ، كما لم يذقه ملك . كنت أحق إخوتى بالعرش ،



لما أودعته فىّ الآلهة من قوة ، ولما حصّلته من علوم الدنيا والدين . ولكنى حرمت من حق ، لسبب تافه ، هو أصل أمى . وعشت فى الظل كرجل لا وزن له . ولما قبضت على مقاليد السلطة بعد موت الملكة حتشبسوت ، أنزلت العقاب بالرجال الذين اغتصبوا سلطتى الشرعية . وكانت الامبراطورية حلمى الأكبر ، لا حبًّا فى القتال أو طمعًا فى الثراء ، ولكن دفعا لشعاع الحضارة المصرية ليعم نوره الأقوام الذين من حولنا ، ولكى يحتل آمون مكانته الرفيعة بين جميع الآلهة .

فقال أحمس (وكان قد جاء فى دوره ، وحُكِم له بالدخول مع الخالدين) :

ـ أشهد بأنك حققت أحلامنا جميعا . وحسبك أنك عرفت النصر عشرات المرات ، ولم تعرف الهزيمة مرة واحدة .

وسأله أبنوم :

ـ ماذا قدّمت للفلاحين ؟ .

فأجاب تحتمس الثالث :

ـ كان منهم جنودى وضباطى وقوادى . وقد أصلحت وسائل الرى ، وأشبعت احتياجاتهم ، فقتلت الفقر فى ربوعهم ، وتحوّل منهم جمع غفير للعمل فى المدن ، فى شتى الصناعات والحرف والتجارة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ لقد قامت امبراطوريتك على الآلاف المؤلفة من جماجم المصريين والأمم ! .

فقال تحتمس الثالث :

ـ الموت لا مفر منه . وأن يموت الإنسان وهو يبنى المجد ، خير من أن يهلك فى وباء أو بسبب لدغة ثعبان . والحق أننى لم أكن جبارا ولا محبا لسفك الدماء . ورسمت خططى على أساس المفاجأة والاتقان ، لأحصل على أسرع نصر بأقل تكلفة من الأرواح . وعقب حصار مجدد ، وقع فى يدى جميع أعدائى من الملوك والأمراء والجنود ، فتوسلوا إلىّ أن أهبهم الحياة . فرق قلبى لهم ووهبتهم الحياة ، وأرسلت أبناءهم إلى طيبة ليتلقوا العلم والحضارة ، وليتأهلوا لحكم بلادهم مكان الحكام المصريين ، وهى سياسة إنسانية حكيمة لم تعرف من قبلى .

فقالت الملكة حتشبسوت :

ـ لولا الثراء الذى تركته لك ، ما استطعت أن تحشد حملة واحدة من حملاتك العديدة على آسيا .

فقال تحتمس الثالث :

ـ حقا ، أورثتنى ثراء فى المال ، ولكنك تركت الجيش فى حال تستحق الرثاء ، وسرى الفساد بين رجالك المقربين ..

فقالت حتشبسوت :

ـ مازلت حاقدا ، سيئ الظن ، فاسد الطوية ، ومازلت مصرا على اتهامى فى شرفى دون دليل ..

فقال أوزوريس :

ـ حسبكما تبادل للكلمات الجارحة ..

وهنا سألته إيزيس :

ـ أكنت تحبها يابنى ؟ .

فقال تحتمس الثالث :

ـ كانت تسخر من قصر قامتى ، التى سجد أمامها ملوك جميع الأمم .

فقالت إيزيس :

ـ هذا الابن العظيم ، جدير بأن تفخر به مصر على مدى التاريخ .

فقال أوزوريس :

ـ اذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

٨

ونادى حورس :

ـ الملك أمنحتب الثالث والملكة تيى .

ودخل الزوجان الملكيان . وتقدما فى كفنيهما ، حتى مثلا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ دعيت الملكة تيى مع الملك ، لمشاركتها له فى الحكم . وكان عهد هذا الملك

عهد رخاء وعز ، لم يسبق له مثيل ، استقبلت مصر فيه خيرات الأمم وأموالها . وسهر على امبراطوريته بيقظة وكفاءة . فأدّب أى متمرد أيًّا كان موقعه . واستمتع بالحياة كما لم يستمتع بها ملك من قبل . فشيّد القصور والمعابد ، وعشق الطعام والشراب والنساء . وفى آخر أيامه تزوج من ابنة ملك متيانى ، وكانت فى سن أحفاده ، فعجّلت بوفاته .

ودعاه الملك للكلام ، فقال :

ـ ورثت عن جدى العظيم تحتمس الثالث ، امبراطوريته . فعقدت العزم على أن أرث عظمته أيضا . ولم يكن هناك مجال لتوسيع الامبراطورية . فقوّيت دعائمها ، وأدّبت متمرديها . ثم مارست العظمة فى البناء والتعمير ، وتوفير الرخاء الشعبى ، وتحديث التقاليد . فتزوجت فتاة من الشعب ، كانت خير شريك لى فى ملكى ، بما كانت عليه من فطنة وحكمة . وخلّفت ورائى عهدا سيظل رمزا للسعادة والرخاء .

فقالت الملكة حتشبسوت :

ـ سرتنى شهادتك للملكة ، واعترافك لها بالجدارة . فهى شهادة للمرأة ، وفيها ردّ بليغ على أعدائى .

فقال أمنحتب الثالث :

ـ تيى ملكة عظيمة .. بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء .

فقال أبنوم :

ـ ولكنك جازيتها أسوأ الجزاء ، بولعك النهم بالنساء ، وتعلقك الشديد بهن

فقال أمنحتب الثالث :

ـ لكل ملك حريمه . وتلك الأهواء العابرة ، لا تنال من مكانة الملكة العظيمة ..

ـ وتتزوج فى شيخوختك بنتا فى سن حفيدتك ؟

فقال الملك :

ـ أردت أن أوثق علاقة مصر بميتانى .

ففال أوزوريس :

ـ لا يجوز الكذب فى هذه القاعة المقدسة .

فقال أمنحتب الثالث بصوت المعتذر :

ـ الحق ، سمعت عن جمالها الفائق ، وكنت مجنونا بالجمال . ورغم الشيخوخة والمرض ، أفرطت فى الحب حتى قُضِى علىّ .

فسأله الحكيم بتاح حتب :

ـ أهذه قمة حكمة العمر ؟ .

فقال أمنحتب الثالث :

ـ ميتة الحب أفضل من ميتة المرض .

* * *

ودعا أوزوريس الملكة تيى للكلام ، فقالت :

ـ اختارنى الملك زوجة عن حب . وانجذبت إليه مبهورة بالحب ، وبأبهة الملك . وربط الحب بيننا حتى آخر العمر . وقد استشارنى مرة فى بعض شئون المُلْك ، فأرضاه رأيى غاية الرضى ، وقال لى « أنت ياتيى امرأة حكيمة بقدر ما أنت أنثى محبوبة » . ومن يومها ، لم يقرر أمرا حتى يستمع إلى رأيى ، وجعلنا نستقبل الوزراء والمسئولين معا ، وأشارك برأيى فى المسائل المطروحة على بساط البحث . واعترف كل مسئول فى المملكة بقدْرى وحكمتى . وجاء إلىّ الكهنة فى اضطراب ، إبّان الأزمة الدينية التى استفحل أمرها ، بسبب دعوة ابنى اخناتون . وقد بذلت أقصى جهدى لتجنب الكارثة ، ومنع الحرب الأهلية . أما عن ولع زوجى بالنساء ، فقد كان لكل فرعون حريمه ، ولم تستأثر زوجة بملك . بل لم أجد بأسا فى انتقاء الجميلات له ، حتى تصفو نفسه ، وينهض بمسئوليته على خير وجه ، وقهرت بقوة إرادتى غيرة المرأة الطبيعية عندى ، وأقنعت نفسى بأن الملكة ليست امرأة عادية ، بل إنها مسئولة عن مزاج زوجها ، كما أنها مسئولة عن سياسته .

فسألتها حتشبسوت :

ـ ألم تنهزم « الملكة » أمام « المرأة » .. ولو مرة ؟

فقالت تيى :

ـ لم أعرف الهزيمة إلا أمام ابنى ..

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ ولكن المرأة هى المرأة ..

فقالت تيى :

ـ ولكن تيى مثال وحدها ، وطراز .. لا يتكرر !

فقالت إيزيس :

ـ أثبتت هذه السيدة ، جدارة المرأة بالحكم أكثر من حتشبسوت نفسها . وكان زوجها ملكا عظيما . وهيهات أن ينقص من قدره ولعه بالنساء ولذة العيش . وقد تقلّب فى النعيم بعد أن يسّره لعامة شعبه . فتقلب معه فى النعيم . فليهنأ قلبى بهذا الابن وهذه الابنة .

فقال أوزوريس :

ـ إلى مجلسكما بين الخالدين .

٩

ونادى حورس :

ـ الملك اخناتون والملكة نفرتيتى .

فدخل رجل وسيم الوجه وامرأة جميلة . وتقدما فى كفنيهما حتى مثلا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ ورثا العرش والحكم شريكين . فجرّ ثورة دينية ، فدعا إلى عبادة إله جديد واحد . وألغى الدين القديم وآلهته . وبشر بالحب والسلام والمساواة بين البشر . تعرضت البلاد فى الداخل للانحلال والفساد ، كما تعرضت الامبراطورية للتمزق والضياع ، ومضت الأوضاع إلى حافة الحرب الأهلية . فسقط الملك . وقضت ثورة مضادة على ثورته . ومحا المؤرخون والملوك عهده من التاريخ ، واعتبروه شر عهد انقض على حضارة مصر فأوشك أن يبيدها .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال أخناتون :

ـ منذ الصغر ، وأنا مواظب على ملء روحى بالمعرفة والحكمة الإلٓهية ، حتى هبط على قلبى وحى من السماء يحمل نور الإله الواحد ، ويطالبنى بالدعوة إلى عبادة هذا الإله الواحد . فكرّست حياتى لذلك . ثم لما وليت العرش كرسته لخدمة نفس الهدف . وسرعان ما قام صراع وحشى بين دعوتى النورانية .. وبين ظلمات الجهل ، والتقاليد ، وأطماع الكهنة ، والحكام المتعطشين إلى الجاه وإلى استعباد الفلاحين ورعايا الامبراطورية . ولم يتسلل الضعف أبدا إلى جهادى الروحى ، ولم أرض باستعمال العنف أو القهر ضد من عادونى . وذقت النصر أعواما ، فنشر الخير جناحيه . ولكن قويت المكائد والدسائس ، وزحفت جيوش الظلام حتى حاصرتنى من جميع الجهات ، فتهاويت وحلّت بى الهزيمة . ولكن ثقتى فى النصر النهائى لم تتزعزع أبدا . فلم يعرف ملك حياة أسمى من حياتى ، ولا ابتُلىَ بنهاية أتعس من نهايتى ..

وقالت الملكة نفرتيتى :

ـ صدق فيما قال يامولاى . لقد جاهدنا جهاد الأبطال ، حتى غلبتنا قوى الشر ، فتهدم البنيان المرتفع ، وتساقطت أركانه ..

وكان الوزير أمحتب ، أول المعلقين ، فقال :

لقد كنا نظن أن هناك قوة إلٓهية واحدة وراء آمون ورع وبتاح وسائر الآلهة . ولكنا لمسنا تعلق الناس بالرموز المجسدة لهذه القوة التى لا يرونها ، فيلتفّون حول هذه الرموز فى كل إقليم ، يستمدون منها القوة والعزاء . فتركنا الأمور تجرى على ما جرت عليه ، رحمة بالقلوب المؤمنة ، وحفظا لها من الضياع .

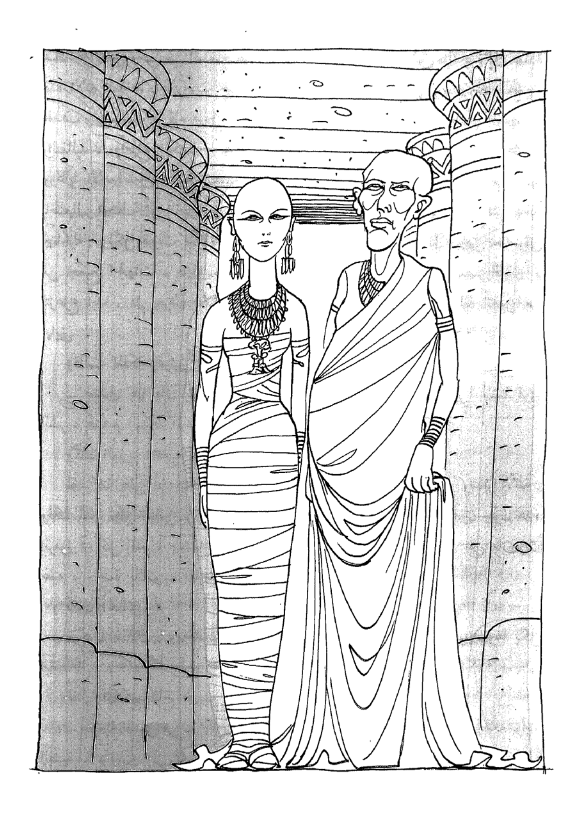
فقال أخناتون :

ـ هذا ضلال . ووجدت أنه آن للناس أن يعرفوا الحقيقة ، ويواجهوها بكل أبعادها .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ معاملة الناس فن ، وفن صعب أيها الملك . ومن لا يحسنه ، فقد تخذله نواياه الطيبة ، وتؤدى إلى غير ما يقصد .. فيقتل من يحب وهو يسعى لانقاذه .

فقال أخناتون :



ـ لولا ذوو الأغراض الخاصة ، لصلحت الأمور .
فسأله أبنوم :
ـ وماذا فعلت بذوى الأغراض ؟
ـ عاهدت نفسى منذ البداية على التعامل بالحسنى ، وعدم الإيذاء والقهر .
فصاح أبنوم :
ـ ليس للاشرار إلا العصا والسيف :
فقال اخناتون :
ـ آمنت بالحب أتعامل به مع العدو والصديق .
فقال أبنوم :
ـ لقد ضيّعت رسالتك بسذاجتك . ورجل الخير ليس إلا مقاتلا .
فقال تحتمس الثالث :
ـ لقد تركت لك أعظم امبراطورية عرفها التاريخ . فكيف ضاعت فى عهدك ، وتحت إمرتك جيش لا مثيل لقوته ؟ .
فقال أخناتون :
ـ كان مبدئى الحب والسلام ..
ـ زدنى شرحا من فضلك .
ـ كنت أدعو لإله واحد لجميع البشر . كلهم يتساوون تحت مظلته . وكنت أدعو إلى أن يحل الحب بين الناس محل السيف .
فقال تحتمس الثالث بغضب :
ـ طبيعى أن تضيع الامبراطورية ، نتيجة لهذا الأسلوب من التفكير . أنت لست إلا مجنونا ! .
فقال أوزوريس :
ـ لا أسمح بتجاوز حدود الأدب فى النقاش . اعتذر فقال تحتمس الثالث :
ـ معذرة . ولكنى أسجل أسفى على ضياع عمرى هدرا .
وقال الملك مينا :
ـ لقد قامت وحدة مصر على السيف وعلى تلّ من الجماجم . وعلى نفس الأساس

كان يجب أن تقوم وحدة الامبراطورية .

فقال أخناتون :

ـ لا جدوى من مناقشتكم . فالمسألة بكل بساطة أننى سمعت صوت الإله . أما أنتم فلم تحل بكم هذه النعمة الإلهية .

وقالت الملكة نفرتيتى :

ـ كم كانت تطاردنا هذه الآراء من أعداء وأصدقاء . وقد حطمتنا الدنيا بجبروتها . ولكننا نقف اليوم بين يدى إله عادل .

ـ وعندئذ سألتها الملكة حتشبسوت :

ـ إذن ، لماذا هجرت زوجك فى قمة الأزمة ؟

فأجابت نفرتيتى :

ـ لم يداخلنى أبدا شك فيه . ولكننى توهمت أننى بهجره ، قد أنقذه من القتل .

وهنا قالت إيزيس :

ـ هذا الابن ، آمن برسالة أراد أن ينقذ بها البشر . ولكن لم يكن أحد مستعدا لفهمه أو التفاهم معه . فكانت المأساة . وسوف أظل فخورة به إلى الأبد .

وقال أوزوريس :

ـ اجلس أنت وزوجتك بين الخالدين .

١٠

ونادى حورس :

ـ الملك حورمحب .

فدخل رجل متوسط القامة ، متين البنيان ، صلب الملامح . وسار متلفعا فى كفنه ، حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ ولى العرش ، رغم عدم انتمائه إلى الأسرة المالكة . وتزوج من موت نجمت لكى يضفى الشرعية على ولايته ، بالرغم من تقدمها فى السن . وانبرى بقوة للقضاء

على الفوضى والفساد والتسيّب ، وإصلاح ما تخرب من معابد على عهد أخناتون . وبفضله استتب الأمن والنظام فى داخل البلاد ، أما الامبراطورية فقد أصبحت فى خبر كان .. باستثناء القليل .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ حقا ، لم أكن من الأسرة المالكة ، ولكنى أنتمى إلى أسرة عريقة من أسر الشمال . وقد نشأت نشأة عسكرية ، وأديت خدمات ناجحة فى عهد الملك أمنحتب الثالث . ولما ولى أخناتون العرش ، قربنى إليه ، ومنحنى الثقة ، ولكنه للأسف ، لم يأخذ برأيى فى وجوب معاقبة المفسدين فى الداخل ، وإرسال حملات لتأديب المتمردين فى أنحاء الامبراطورية . ولما بلغت الأزمة أشدها ، ولاحت فى الأفق نذر الحرب الأهلية ، تفاهمت مع كهنة آمون على التصفية النهائية لحكم أخناتون ، مفضّلا المصلحة العامة على عواطفى الشخصية . واتفق رأى الجميع على جدارتى بالعرش لمواجهة الفوضى الضاربة فى أنحاء البلاد . ولكن رُئِى أن يُحترم القانون أولا . فتولى الملوك الثلاثة ، ساكرع وتوت عنخ آمون وآى . حكم الأول أربعة أعوام ، والثانى ستة أعوام ، والثالث أربعة أعوام . وعجزوا جميعا عن مواجهة الأزمة . واستمر الاضطراب والفساد فى عصورهم . وعقب وفاة آى ، قامت ثورة ونهبت المقابر . فلم أجد مفرا من تحمل المسئولية . وقد تزوجت من موت نجمت أخت نفرتيتى ، لأنها كانت من أوائل الذين كفروا باخناتون ، وانضمت إلى الكهنة لانقاذ البلاد .

ووجدت المهمة أمامى ثقيلة ومتشعبة . ولكن لم أكن أفتقد القوة أو العزيمة . فأخمدت الثورة ، ونظمت الجيش والشرطة والإدارة ، وراقبت الموظفين ، ولم أرحم منحرفا . ثم جددت المعابد ونظمت الأوقاف . وحميت الضعفاء من الأقوياء . ولو امتد بى العمر أكثر مما امتد ، لاستردت ما ضاع من امبراطورية العظيم تحتمس الثالث .

وتكلم الملك خوفو ، فقال :

ـ قمت بعمل مجيد أيها الملك .

فقال أبنوم :

ـ عمل مجيد حقا . ولا لوم عليك لعدم إرجاع السلطة إلى الشعب ، بما أنك من سلالة أسرة عريقة . وترجمتها الأمنية عندى ، أسرة عريقة فى النهب والسلب .

فقال أوزوريس :

ـ لا أوافق على هذا الأسلوب فى النقاش . اعتذر .

فقال أبنوم متجها :

ـ معذرة .

وقال تحتمس الثالث بأسف :

ـ كنت جديرا بارجاع الامبراطورية إلى مجدها الأول .

فقال حورمحب :

ـ كانت البلاد ممزقة ، وعلى حال من الفساد والفوضى تفوق الخيال .

وتكلم أخناتون فقال :

ـ لم أحب أحدا من أتباعى كما أحببتك ياحورمحب ، ولم أكرم أحدا منهم كما أكرمتك . وكان جزائى أن خنتنى ، وانضممت إلى أعداء الشعب وأعدائى . ثم هدمت مدينتى ومعبدى ، ومحوت اسمى ، وصببت علىّ اللعنات ..

فقال حورمحب :

ـ لا أنكر شيئا من جميع ما قلت . وقد أحببتك أكثر من أى رجل عرفته ، ولكننى أحببت مصر أكثر.

ـ وشاركت فى محو عبادة الواحد الأحد ، وإرجاع الآلهة الزائفة إلى عروشها ..

فقال حورمحب :

ـ لم يكن ، فى مقدرتى ، تجاهل ما تنبض به قلوب الملايين.

وهنا قالت له نفرتيتى :

ـ كنت تحبنى ياحورمحب . فلما تزوجت من أخناتون ، أضمرت له الحقد .

فقال حورمحب :

ـ أقول لك أيتها الملكة ، فى هذه القاعة التى لا يجوز فيها الكذب .. لم تشغل المرأة أبدا من قلبى إلا أتفه جزء فيه . معركتى معكم كانت معركة وطنية ، لا معركة غرامية !

وهنا قالت إيزيس :

ـ ابنى هذا ، أقوى من أن يحتاج إلى دفاع .

فقال أوزوريس :

ـ إلى مجلسك بين الخالدين .

١١

ونادى حورس :

ـ الملك رمسيس الثانى .

فدخل رجل طويل القامة ، رشيق القد ، تقدم فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ تولى المُلك عقب وفاة أبيه . وطّد نفوذ مصر فى النوبة وآسيا . حارب الحيثيين ثم عقد معهم معاهدة سلام . ثم كرّس حياته المديدة للبناء بصورة لم تعرفها البلاد من قبل . وكان عصره عصر تعمير وازدهار للفن والأدب والرخاء . وقد طال عمره حتى قارب المائة . واستمتع بالحياة طولا وعرضا . وأنجب من الأبناء ما يقارب الثلاثمائة .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ الحق ، أننى اغتصبت العرش من أخى ولىّ العهد . لاعتقادى بأن الوقت يتطلّب ما أوتيته من قوة ، وأن ضعف أخى سيكون كارثة على البلاد لو ولى العرش . وكنت طموحا مقداما . فصممت على أن أوفّر لوطنى فى الداخل أقصى درجات الأمان والنظام والعدل والرفاهية ، وأن أرجع الامبراطورية لسابق عهدها المجيد . فوطدت نفوذى فى الجنوب ، ثم تقدمت إلى فلسطين وسوريا ولبنان ، وأسرع إلىّ الحكام والأمراء يقدمون فروض الطاعة . ثم توجهت بجيوشى إلى قادش ، لأنزل الضربة القاضية بعدوى القوى ، ملك الحيثيين . وأوقعنى سوء الحظ فيما يشبه الحصار . فأحاط بى العدو ، وبقية جيشى بعيدة عنى . وثار بى الغضب ، وخفت على كرامة مصر التى باتت أمانة بين يدىّ ، وصليت إلى إلٰهى طويلا . ثم هجمت

على العدو ، وحولى شرذمة من الحرس ، وانقضضت على جموعه كالصاعقة ، فتزلزلت قلوبهم ، وتوالت مصارعهم تحت ضرباتى ، فشققت بينهم ثغرة نفذت منها إلى جيشى . ثم كررنا عليهم ، فسحقناهم سحقا حتى رموا بأنفسهم فى مياه النهر . وتم لنا النصر . وحاصرت قادش . فاقترح ملكها معاهدة صلح وسلام ، لم أجد بأسًا بها ، خاصة بعد أن استرددت الامبراطورية عدا أجزاء لا يعتدّ بها . ثم رأيت أن أكرس حياتى للبناء . فتزوجت من ابنة ملك الحيثيين دعما للسلام . ورفعت من الأبنية ما لم يرفعه فرعون قبلى . وهيأت من السعادة لأهل مصر ، ما لم يعهدوه من قبل ، ولا أحسب أنهم عرفوه من بعد .

وكان أول المتكلمين سيتى الأول (سبق أن جاء فى دوره ، وحُكِم له بأخذ مجلسه مع الخالدين) فقال :

ـ ولكنك بدأت حياتك باغتصاب حق أخيك ولى العهد الشرعى .

فقال رمسيس الثانى :

ـ لا أحترم قانونا يورّث عرشا لعاجز لا يستحقه .

فسأله تحتمس الثالث :

ـ كيف يرضى قائد مظفّر بأن يعقد معاهدة سلام مع عدوه ، ثم يتزوج من ابنته ؟ .

ـ هو الذى طلبها .. ووجدتها مفيدة للطرفين .

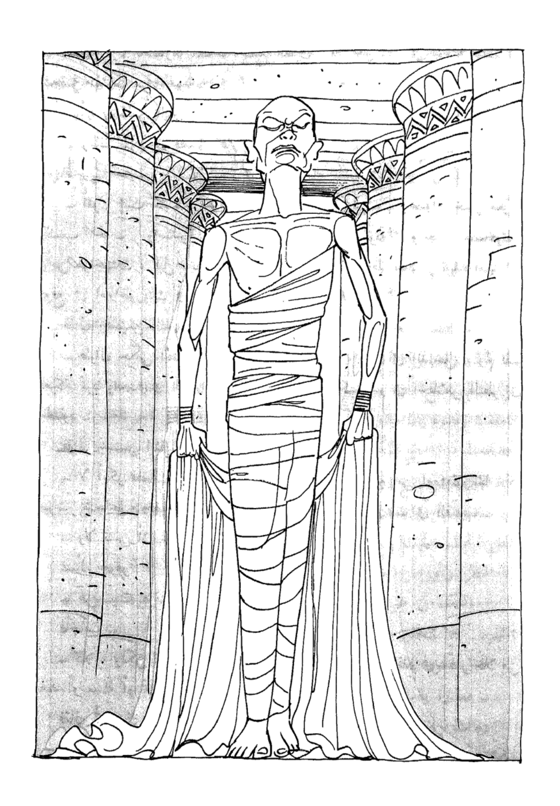
ـ كيف وقعت فى الحصار أيها الملك ؟

ـ وقع فى يدنا جاسوسان للعدو ، اعترفا كذبا بأن العدو مرابط شمال قادش . فأسرعت بالفرقة الأولى لأحتل جنوب قادش ، ولكن العدو كان كامنا فى الشرق ، فاخترق مؤخرة الجيش وضرب حصاره

ـ لقد تسرعت ، وكان يجب انتظار جيشك القادم من الجنوب . أنت شجاع ما فى ذلك شك ، ولكنك قائد غير محنك .

ـ لقد حطمت الحصار ، ثم كررْت على العدو ببقية جيشى ، فوقع فى المصيدة التى نصبها لى ، فمزقته شر ممزق ، وأحرزت نصرا حاسما .

فقال تحتمس الثالث مواصلا مناقشته :



ـ لم يكن هدفك كسب معركة . ولكن واضح أنك أردت الاستيلاء على قادش كما فعلت أنا ، باعتبارها مفتاحا لجميع الطرق . فلا حق لك فى ادعاء النصر إلا بتحقيق الهدف من الحملة .

فسأله رمسيس الثانى :

ـ وماذا تقول فى قضائى على جيش العدو ؟

فأجاب تحتمس الثالث :

ـ أقول إنك كسبت معركة ولكنك خسرت الحرب . وعدوك خسر معركة وكسب الحرب . واستدرجك إلى السلام ، لينظّم صفوفه ، ورحب بمصاهرتك ليأمن مواجهتك ، قبل أن يعوض خسائره . وقنع بالاحتفاظ بقادش ليهدد منها أى موقع فى امبراطوريتك فى المستقبل .

فقال رمسيس الثانى :

ـ طوال حكمى الطويل ، لم يختل الأمن ساعة واحدة فى الداخل ، ولم تقم معركة تمرد واحدة فى الامبراطورية المترامية ، أو يفكر عدو فى اختلاس النظر إلى الحدود .

فقال تحتمس الثالث :

ـ لا أنكر فضلك . لقد أعدت إلى مصر الجزء الأكبر من امبراطوريتها . كما تميزت بشجاعة شخصية فائقة ، كانت قديرة على إلقاء الرعب فى القلوب .

ـ ولا تنس أن عصرى كان عصر التعمير الأعظم .

فسأله خوفو :

ـ هل بنيت هرما ؟

فأجاب :

ـ كلا ، ولكن ليس بالهرم وحده يعمّر الإنسان . وما من إقليم فى مصر خلا من معبد أو مسلة أو تمثال لى .

فقال أخناتون :

ـ استوليت على أعمدة معبدى المهدم ، وشيدت بها معبدك الجنائزى . وتكرّر سطوك على آثار السابقين . كما حفرت اسمك على آثار غيرك بغير حق . وقلّلت من

شأن كل عظيم سبقك ، كأن الآلهة لم تخلق سواك .

فقال رمسيس الثانى :

ـ فى هذه القاعة المقدسة ، لا أنكر خطأ ولا أدافع عن نزوة . ولكن دع غيرك يوجه إلىّ الاتهام ، ويكون مبرءا من الكفر .

فقال أوزوريس :

ـ لا تنس أيها الملك أنك تخاطب رجلا تمت محاكمته ، واستحق الخلود . اعتذر .

فتمتم رمسيس الثانى بهدوء :

ـ معذرة .

وعند ذلك ، سألته الملكة حتشبسوت :

ـ وما قصتك مع النساء ؟ وهل وجدت وقتا لملاطفة أبنائك التلاثمائة ؟

فقال رمسيس الثانى :

ـ لم يتمتع أحد بالسعادة كما تمتعت . وهبتنى الآلهة عمرا مديدا ، وصحة كاملة ، وقدرة بلا حدود على الحب . ولم تضعف قوتى حتى آخر العمر ، رغم ما خصصت به زوجتى الملكة نفرتارى من احترام ومودة . أما أبنائى فما عرفت إلا أقلهم !

فقال ابنوم :

ـ حياتك أيها الملك جامعة بين الجدية بكل معانيها ، وبين العبث بكل نزواته . فلعل الحكم عليك يجمع بين الانصاف والردع !

فنظر أوزوريس نحو أبنوم وقال :

ـ المحكمة فى غنى عن إرشادك . وأراك تحن إلى إشعال ثورة جديدة فى عالم الخلود . فلا تتجاوز حدودك واعتذر .

فقال أبنوم :

ـ معذرة ياسيدى العظيم .

وقالت إيزيس قاصدة رمسيس الثانى :

ـ أعاد هذا الابن مصر إلى سابق مجدها . وعم الرخاء فى عهده الجميع : القصور والبيوت والأكواخ . وإذا قسنا هفواته بطول عمره ، ظهرت تافهة .

وقال أوزوريس :

ـ اذهب إلى كرسيك بين الخالدين .

١٢

ونادى حورس :

ـ الملك امنمس والملك سبتاح والملك سيتى .

فدخل الثلاثة . وتقدموا فى أكفانهم حتى مثلوا أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ شُغلوا بمنازعاتهم على العرش . فساد الفساد والانتهازية .

وتمزقت وحدة البلاد . وانتشر القتل والسلب والنهب .

ودعاهم أوزوريس إلى الكلام فقال أمنمس :

ـ كنت الأحق بالعرش . ولكنه أغتصب منى . وشُغلت عن واجبات الحكم بمطاردة الدسائس ، حتى اضطررت للتخلى عن العرش .

وقال سيتى :

ـ كنت أملك من القوة ما أستطيع به أن أحكم حكما طيبا . ولكن الفساد كان قد استشرى فاجتاحنا الانحلال .

فقال الحكيم أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ ما أسرع أن يحل الفساد محل المجد ، وأن ينعكس ضعف حاكم واحد على حضارة متكاملة .

فقال تحتمس الثالث :

ـ لعل المشكلة تتلخص فى كيف تعثر على الرجل القوى المناسب فى الوقت المناسب .

فقال حور محب :

ـ لم يكن فى الأسرة المالكة رجل قوى كفء ، ولكن هل خلت البلاد من ذلك الرجل ؟

فقالت إيزيس :

ـ قضى القانون ، بأن يرشَّح الموجود . والبحث عن المطلوب يتطلب قدرة وعناء . ولم يكن فى وسع هؤلاء أن يفعلوا خيرا مما فعلوا .

فقال أوزوريس :

ـ اذهبوا إلى مقام التافهين .

١٣

ونادى حورس :

ـ الملك رمسيس الثالث .

فدخل رجل طويل القامة يبدو عملاقا . ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ انتصر على الأعداء فى آسيا والغرب والوافدين من البحر ، ونشر الأمن والأمان فى البلاد .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ نتيجة للمعاناة فى الداخل ، تمرد الأمراء فى آسيا ، وطمع الليبيون فى الغزو ، ثم دهمنا من بحر الشمال أقوام بنسائهم وأطفالهم يريدون الاستيطان . وفى الحال نهضت للقتال دون هوادة . فطردت الليبيين ، وقضيت على الشماليين وأسرت نساءهم وأطفالهم . ثم قدت حملة إلى آسيا ، ففتكت بالعصاة دون رحمة . وحظيت البلاد فى عهدى بالأمان والاستقرار . فشيدت العديد من القصور والمعابد .

ومن سوء الحظ ، أننى تعرضت فى شيخوختى إلى مؤامرة فى الحريم لاغتصاب العرش . ونجوت من الموت بأعجوبة . ثم شكلت محكمة عليا لمحاكمة المذنبين . وأمرت بالعدل ، بحيث لا ينجو مجرم ، ولا يؤخذ برىء . ومن المؤسف أن قاضيين سقطا ، باغراء بعض نساء الحريم ، ولما انكشف أمرهما انتحرا .

فقال تحتمس الثالث :

ـ مواقعك تشهد لك بأنك من القواد الأفذاذ . .

فقال رمسيس الثالث :

ـ لقد ترسمت خطاك فى غزوتى الآسيوية .

فقال أخناتون :

ـ إن معاملتك للمتآمرين عليك ، وتقديمهم للمحكمة بدلا من أن تبطش بهم ، وطلبك من المحكمة تحرى العدل وحده .. كل ذلك يقطع بتقديسك للقانون ، وشغفك بمكارم الأخلاق ، كأنما كنت من عباد الإله الواحد .

فقال رمسيس الثالث :

ـ كنت من عباد مكارم الأخلاق .

فقال بتاح حتب :

ـ إنه كيد النساء ، كاد يفتك بملك عظيم ، وأهلك قاضيين ..

فقالت الملكة نفرتيتى :

ـ لقد خلق الإله الواحد النساء ، ليكشفن معادن الرجال .. الثمين منها والخسيس !

فقالت إيزيس :

ـ تحية لهذا الابن الجامع بين العظمة والنبل .

فقال أوزوريس :

ـ إذهب إلى مجلسك بين الخالدين .

١٤

ونادى حورس :

ـ الملك أمازيس .

فدخل رجل طويل نحيل ، مضى فى طريقه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة .

ـ وطّد النظام فى الداخل ، وغالى فى اعتماده على اليونانيين ، وشغف بالولائم والعربدة . وفى عهده ظهرت دولة الفرس ، فسعى إلى إقامة حلف من مصر

وبابل[1] واليونان لصدها ، ولكنها اجتاحت بابل .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ اعتبرت الملك إبريس[2] مسئولاً عن هزيمته أمام بابل ، وقدرت أنه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد ، فخرجت عن طاعته ، واستوليت على العرش . وقد أقمت حلفًا لصد الفرس ، ولكن الفرس اجتاحت أقوى جناح فيه ، فتفرغت للإصلاح فى الداخل .

فسألته الملكة حتشبسوت :

ـ ماذا فعلت للداخل ؟

فأجاب أمازيس :

ـ عم البلاد رخاء ملحوظ . وأصلحت القانون المدنى . وحسبى أن أذكر المادة التى ألزمت كل غنى أن يبيّن لرئيس مدينته مصادر ثروته .

فسأله تحتمس الثالث :

ـ ماذا فعلت لاعداد قومك لمواجهة الطامعين الجدد ؟

ـ لم يعد قومى يبالون إلا بالفلاحة وحياتهم الخاصة .

فقال له رمسيس الثانى :

ـ وكنت قدوتهم فى ذلك ، بشغفك بالولائم والعربدة . ولست ضد الولائم والعربدة إذا كانت فى إطار العظمة !

فقالت إيزيس :

ـ إصلاحاته لا يستهان بها . وكانت له خطة حكيمة لولا الفشل .

وتفكر أوزوريس قليلاً ، ثم قال :

ـ تمكث فى مقام التافهين ألف سنة ، ثم تنتقل إلى الجنة فى درجة متواضعة تناسبك .

(١) مدينة ذات حضارة قديمة تقع على نهر الفرات بالعراق .

(٢) الملك أبريس سبق الملك أماريس فى المحاكمة . فحكم عليه بالمقام بين التافهين

١٥

ونادى حورس :

ـ بسماتيك الثالث .

فدخل رجل متوسط القامة ، قوى البنية ـ سار فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حكم ثلاثة أشهر ، ثم تصدى بجيشه للدفاع عن مصر أمام جيش قمبيز ملك الفرس ، وانهزم جيشه ، ووقع فى الأسر ، وقتله قمبيز ، واستولى على مصر.

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ توليت العرش ، والجيوش الفارسية تتوغل فى آسيا ، وتتجه نحو مصر. فاستعددت بقواتى اليونانية ، وجنّدت ، على عجل ، جيشًا صغيرًا من المصريين . ولاقيت العدوْ فى معركة حامية .

فدارت الدائرة علينا ، ووقعت فى الأسر. وقد أراد قمبيز أن أتولى العرش بوصفى تابعًا له . ولكنى رفضت ، وعملت فى الخفاء على مقاومة الغزاة . فانكشف أمرى ، ودفعت حياتى ثمنًا لذلك .

وتكلم تحتمس الثالث ، فقال :

ـ حدثنى عن مقاومة كل من اليونانيين والمصريين فى المعركة .

فقال بسماتيك الثالث :

ـ لاشك ، كانت مقاومة المصريين أشد بدرجة لا تقاس .

فقال تحتمس الثالث :

ـ توقعت أن أسمع ذلك . وربما لو كان جيشك كله مصريًا ، لتغيّر مصير المعركة ـ ولكنكم أهملتم شعبكم ، واعتمدتم كل الاعتماد على الأجانب ، بعد أن بدأ أسلافك فى الاستعانة بالجنود المرتزقة من الأجانب . وبذلك انتهى تاريخ مصر المستقلة على يدكم .

فقال سيكننرع (وكان قد جاء فى دوره من قبل ، وحكم له بالجلوس مع الخالدين) :

ـ لا يجوز أن ننسى أنه رفض العرش فى ظل الحكم الأجنبى . وضحى بنفسه فى سبيل ذلك ـ وشاركنى نفس المصير .

فقالت إيزيس :

ـ أمامكم ابن سيئ الحظ ، حارب بشجاعة ؛ ولو كان هدفه أن يحكم بأى ثمن ، لظل فى الحكم ، ولكنه قتل عزيزًا شريفًا .

وقال أوزوريس :

ـ خذ مجلسك بين الخالدين .

١٦

وقال أوزوريس :

ـ أيها السادة ..

لقد انتهت مصر الفرعونية .. فانتهى اختصاص هذه المحكمة المقدسة .

فليس من اختصاصها محاكمة الحكام الأجانب ، الذين حكموا مصر بعد ذلك . وهى تعتبرهم جميعًا ملعونين ، وإن اختلفت درجة اللعنة بين حاكم مصلح وحاكم مفسد .

ولكنها ستواصل محاسبة المصريين ، الذين كان لهم دور فى تاريخ مصر بعد ذلك . ونقصد بالمصريين ، من كانت مصريتهم بالوراثة ، ومن اكتسبوها بالإقامة والقلب والروح .

ولأن المصريين دخلوا فى دين جديد ، فاعتنقوا المسيحية ثم الإسلام .. فسيكون حكمنا ـ بالنسبة لمن نحاسبهم ـ حكمًا غير نهائى . بل سيكون نوعًا من التقدير التاريخى ، نرجو أن يوضع فى الاعتبار عند حسابهم فى الآخرة حسب دينهم .

والآن أترك الكلمة لتحوت كاتب الآلهة .

فقرأ تحوت كاتب الآلهة :

* انتهت مصر الآلهة ، والأهرامات ، والمعابد ، والضمائر المنيرة .

* وأصبح الفرس ملوكًا على العرش الذهبى . ولكنهم عبدوا آلهتنا ، وتمسحوا

بتقاليدنا ، ورغم ذلك فإن المصريين مقتوهم مقتًا ، ثاروا وتحرروا ، وهُزموا واستُعبدوا .

* وجاءنا الاسكندر الأكبر غازيًا ومحررًا من استعباد الفرس .

* ثم ورث مصر أحد قواده ، بطليموس . فأنشأ لأسرته البطالمة دولة وحضارة . واستأثر الأجانب بالنشاط الجوهرى . بينما عاش المصريون فى الظل ، يفلحون الأرض ، ويقنعون بالدرجة الدنيا ، باستثناء الكهنة ، الذين بقيت لهم الشئون الدينية .

وقد انفجرت حركات مقاومة فى صورة هجرات جماعية أو إضرابات .

وكانت تقابل بالعنف والشدة .

فقامت ثورات ، ولكنها أخمدت بقسوة ، وأُريقت دماء غزيرة .

* وانتهى حكم أسرة البطالمة فى عهد الملكة كليوباطرة التى ولدت فى الاسكندرية ونشأت بها .

* ودخلت مصر تحت حكم أجنبى جديد ، هو الحكم الرومانى .

فاعتُبرت «مزرعة» لامداد روما بالغلال .

وازداد وضع المصريين سوءًا . وكلما ثاروا ، أخمدت ثورتهم ، وسفكت دماؤهم .

* وفى عهد الحاكم الرومانى نيرون ، تسرّبت المسيحية إلى مصر . فأقبل فريق من المصريين يغيرون دينهم إليها ـ وغلب الزهد على معتنق الدين الجديد . فاعتصم كثيرون منهم بكهوف الصحراء فرارًا من ظلم الحكام وفساد الدنيا .

وقد قاومت الحكومة الرومانية الدين الجديد ، وانهالت بحرابها على معتنقيه ، حتى عرف عصر الامبراطور دقلديانوس بعصر الشهداء .

وفى عصر تيودوسيس ، حتم الامبراطور اعتناق المسيحية على رعاياه . فكان للديانة المصرية القديمة شهداؤها كذلك . ولكن أغلبية المصريين اعتنقت المسيحية . إلا أنهم استقلوا فيها بمذهب خاص بهم .

وامتزجت الروح الدينية بالروح الوطنية ، وعملا معًا على الثورة على حكم الرومان ، والاستقلال عنهم . فتعرضوا لمذابح وعذابات لا حصر لها . واتخذ الصراع

صورة معركة دينية بين الكنيسة المصرية وكنيسة الدولة الرومانية . واستمر النزاع مصحوبًا بأشد أنواع الاضطهاد من الرومان للمصريين !

* * *

وصاحب كلام تحوت ، صمت ثقيل .. وظل بعده لفترة .. إلى أن أشار أوزوريس إلى حورس ، فصاح حورس :

ـ المقوقس حاكم مصر.

فدخل رجل بدين ، مائل إلى القصر ، ومضى متلفعًا فى كفنه حتى وقف أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ حاكم مصر باسم الإمبراطور الرومانى . اعتبره الأقباط مصريًا . وفى عهده فتح العرب مصر. وقد اتفق مع العرب ليتخلص من الرومان . وبذلك دخلت مصر فى عهد جديد تحت حكم العرب .

فدعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولأنى الإمبراطور الرومانى حكم مصر. ورغم أصلى اليونانى ، فقد اعتنقت المذهب اليعقوبى المصرى . فرضى عنى الأقباط ، واعتبرونى واحدًا منهم . وقد رأيت الاتفاق مع العرب ، تخلصًا من الرومان . وحصلت بذلك على شروط حسنة .

فسأله أبنوم :

ـ كيف أمِنْت للاتفاق مع الغزاة ؟

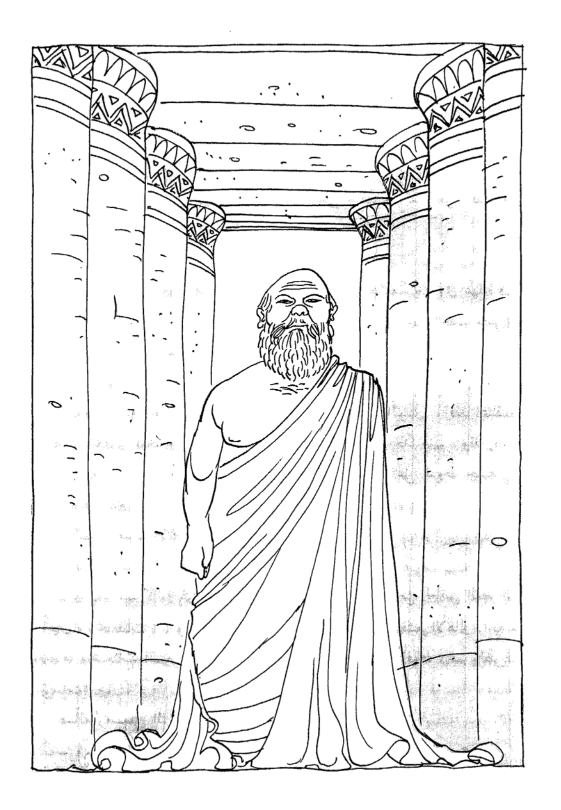
فأجاب المقوقس :

ـ أشهد أنهم كانوا غزاة شرفاء . وقد قسّم قائدهم عمرو بن العاص القطر إلى «أعمال » « محافظات » ، وضع على رأس كل منها حاكمًا قبطيًا . فشعر الأهالى براحة لم يعرفوها منذ مئات السنين . وحرّر العبادة من كل قيد ، فعبد الأقباط ربهم بالطريقة التى آمنوا بها ..

فسأله رمسيس الثانى :

ـ ولِمَ جشّموا أنفسهم مشقة الغزو إذن ؟

فقال المقوقس :



ـ كان هدفهم الأساسى ، فيما بدا لنا ، الدعوة إلى دين جديد بشّروا به ، يدعى الإسلام .

فقال أبنوم :

ـ واستقبلت مصر عهد شهداء من جديد ؟

فقال المقوقس :

ـ أبدًا .. لقد كانوا يدعون إلى دينهم بغير إكراه .. ومن يشأ الثبات على دينه ، يدفع الجزية .

فسأله خوفو :

ـ وما وجه الخلاف بين هذا الدين ، وديننا القديم ؟

ـ كانوا يؤكدون على وحدانية الإله .

فصاح اخناتون :

ـ هذا دينى وهذا إلٰهى .. طالما آمنت بأننى سأنتصر فى النهاية .

فقال أبنوم :

ـ حدثنى عما أفاده الفلاحون الكادحون ؟

ـ لقد ألغى عمرو بن العاص كثيرًا من الضرائب التعسفية . فتحسنت أحوال الفقراء .

فقال إيزيس :

ـ عادت سياسة هذا الرجل على أبنائى بخير غير منكور .

فقال أوزوريس :

ـ يمنح شهادة تزكية ، لعلها تنفعه فى حسابه فى الآخرة .

١٧

ونادى حورس :

ـ البطريرك بنيامين .

ـ ودخل رجل نحيل متوسط القامة . وتقدّم حتى مثل أمام العرش .

وقرأ تحوت كاتب الآلهة :

ـ بطريرك الأقباط . حمله الاضطهاد الرومانى على الانعزال فى الصحراء . أفرج عنه عمرو بن العاص ، بعد أن طرد الرومان من مصر ، وأعلن حرية العبادة فيها .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ العقيدة هى شرف الإنسان ، وهى كرامته وعزته ، وهى طريقه إلى الله . وقد تحملت ما تحملت من اضطهاد الرومان ، فلم أتزعزع عن عقيدتى . ثم آويت إلى الدير ، محتجًا على السقوط البشرى فى هاوية الظلم والفساد . وقضى الله أن تقع مصر فى أيدى بنى إسماعيل ، العرب المسلمين . فهيأوا للناس حرية العبادة . فرجعت مطمئنًا إلى كرسى البابوية بالإسكندرية ، ومارست الزعامة الروحية للأقباط .

فقال تحتمس الثالث :

ـ أصبح غاية ما يرتجيه المصرى ، أن يفوز بغاز أجنبى عادل .

فقال البطريرك بنيامين :

ـ لقد مضى على شعبنا زهاء ألف عام ، وهو قابع فى قراه ، وخاضع لأسرات أجنبية تحكمه بقوة السلاح ، فسأله أبنوم :

ـ ألم تستغل سلطتك الروحية لايقاظ الشعب ؟

فقال البطريرك :

ـ لماذا ؟ وقد أتاح لنا هذا الحاكم الجديد حرية العقيدة ، وخفّف الأعباء عن الفقراء ، ولم يحاول إكراهنا على اعتناق دينه ؟

فقالت إيزيس :

ـ لا لوم على الرجل

فقال أوزوريس :

ـ ليس لدى محكمتنا ما تؤاخذك عليه .

١٨

ونادى حورس :

ـ الحاج أحمد المنياوى .

فدخل رجل طويل القامة ، قوى البنيان . وتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ فى الأصل من أسرة ميخائيل المنياوى . هدانى الله إلى الإسلام ، فأسلمت . وتعلمت اللغة العربية . وحفظت القرآن الكريم . واشتغلت بالتدريس . ثم مكننى الله من أداء فريضة الحج .

وفى أيامى ، تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وكان من الخلفاء الراشدين ، حيث كان مثل خلفاء المسلمين الأوائل ، شكا إليه الأقباط أسامة بن يزيد ، فأمر بعزله ، ثم قَبِض عليه ، وسيق إلى الخليفة «مكبّلا» .. فمات فى الطريق . وتولى مكانه أيوب بن شرحبيل ، وكان ورعًا ، فعوّض الأقباط عما وقع بهم من ظلم .

وسأله اخناتون .

ـ لماذا اعتنقت الإسلام ؟

ـ الإيمان ينفجر فى القلب دون مقدمات .

فقال أخناتون :

ـ صدقت ، ولن يصدقك مثل خبير. ولكن ألم تكن لأناشيدى دخل فى ذلك ؟

فقال أوزوريس :

ـ إسمك لم يُعرف إلا بعد أيامه بألف عام .

فقال الملك خوفو مخاطبًا أحمد :

ـ لعلك أسلمت لتتخلص من دفع الجزية .

فقال أحمد :

ـ أبدًا .. بل هو الدين الجديد آمنًا به دون إكراه .. والجزية لم تكن هى السبب . وقد كانت خفيفة بل حدث أن قائد الجيش حيان بن شريح ظل يطلب

الجزية من الذين دخلوا فى الإسلام . ولما بلغ الخليفة ذلك ، أمره برفعها ، كما أمر بضربه عشرين سوطًا ، وقال له : إن الله بعث محمدًا هاديًا ، ولم يبعثه جابيًا [أى جامعًا لجزية] .

فقال أوزوريس :

ـ ليصحبك التوفيق أمام محكمتك الإسلامية .

١٩

ونادى حوس :

ـ موسى كاتب سر أحمد بن طولون .

فدخل رجل مديد القامة ، مضى حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ قبطى مسيحى . وهبنى الرب علمًا ودراية . فاختارنى الوالى أحمد بن طولون كاتبًا لسرّه . ولم يكن عربيًا . وقد آلت إليه الأمور فى مصر فى عهد الخليفة المعتمد بن المتوكل . فعمل على تثبيت ولايته . وكأن مصر قد عاد إليها استقلالها . بل إنه ضم لحكمه سوريا وأجزاء من آسيا الصغرى . وعكف على الإصلاح والبناء والبر وإقامة العدل وانتشرت مظلته فوق المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . فلهجت الألسنة بالثناء عليه . وكان يجلس يومين ، من كل أسبوع ، يستمع للمظالم من عامة الناس ، كما كان يفعل الخلفاء الراشدون ـ لذلك عندما اشتد عليه المرض ، خرج الجميع يدعون له فوق جبل المقطم ، المسلمون بقرآنهم ، والمسيحيون بانجيلهم ، واليهود بتوراتهم .

فسأله الحكيم تباح حتب :

ـ هل انتفع الأقباط المسيحيون بمنزلتك عند الوالى ؟

فأجاب موسى :

ـ لقد كان اختياره لى دليلاً على ايمانه بالمساواة بين الطوائف . وآمنت مثله بالمساواة . وحتى عندما رشحت له المهندسين المسيحيين لبناء الحصون والمساجد ،

كنت أتحرى الدقة بلا تحيّز. والحاكم العادل ، يستخرج من معاونيه خير ما عندهم ، فى كل ما هو قدوة لهم فيه .

وسأله الحكيم أمحتب وزير زوسر :

ـ وكيف كانت العلاقات بين الطوائف ؟

ـ على خير ما يكون . وكما لابد لها أن تكون فى ظل حاكم عادل . فى عهده أصبحت مصر شعبًا واحدًا ذا أديان ثلاثة . وكان الإسلام قد أخذ ينتشر ، ويكثر عدد معتنقيه .

واستأذن تحوت كاتب الآلهة فى توجيه سؤال ، وقال :

ـ لماذا سَجَن البطريرك ميخائيل ، بطريرك كنيسة الاسكندرية ؟

فأجاب موسى :

ـ لم يكن الذنب ذنبه ، ولكنها كانت دسيسة من أسقف حقود يدعى سكا ، زعم لابن طولون أن البطريرك يدخر ثروة طائلة ، ليس بحاجة إليها ، فطالبه ابن طولون بالتبرع بشىء من ثروته للمساهمة فى تجهيز جيش مصر ، للتصدى لجيوش أجنبية كانت تتربص بمصر على الحدود . وكان ابن ولون يتحفّز لدفعها . فاعتذر البطريرك بعدم استطاعته . فسجنه ابن طولون بتهمة الخيانة ،

ولما تولى ابنه خمارويه ، بعد وفاته ، أطلق سراح البَطريرك ، وأرجعه مكرّمًا ، بعد أن تبيّن له وجه الحقيقة .

فقال أوزوريس :

ـ عرضت صفحة مشرقة ، فلتصحبك السلامة .

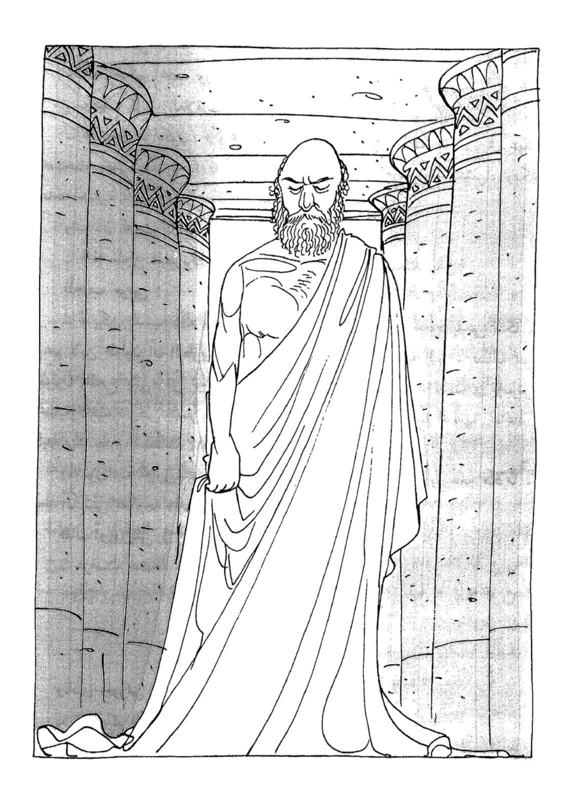
٢٠

ونادى حورس :

ـ على بك الكبير

فدخل رجل ذو طول وقوة . ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

وقال أوزوريس :



ـ إنك أول حاكم أجنبى ، نستدعيه إلى محكمتنا . فقد كانت سياستك ذات
مصرية خالصة ، لم تظهر من قبل . وها أنا أدعوك إلى الكلام .

فقال على بك الكبير :

ـ كنت فى الأصل من مماليك إبرهيم كخيا . فميّزنى لشجاعتى . فصرت أحد
وات المعدودين . ثم رقيت شيخًا للبلد (ما يعادل رئيس الوزراء الآن) . وعند
، فكرت بالاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية التى كانت مصر تابعة لها . وتمّ لى
ردت . وسرعان ما خففت الضرائب ، وأقمت العدل ، ونفذت حكم الإسلام
نة ، فينعم بالسلام والأمانْ أهل مصر ، مسلمين ومسيحيين ويهودًا . ومددت
لمانى حتى العربية والشام والنوبة .

ولولا خيانة أبى الذهب ـ أحد مماليكى المقربين ـ لكان لمصر مصير غير المصير .
ومت كريمًا ، كما عشت كريمًا .

وتكلم أخناتون ، فسأله :

ـ ألا يعتبر استقلالك بمصر ، تمزيقًا لوحدة الإسلام دين الإله الواحد؟

فقال على بك الكبير :

ـ كان العثمانيون يمارسون الظلم والفساد ، تحت شعار إسلام زائف . وهالنى ما
، أهل مصر من عذاب . فوجدت أن السبيل الأوحد لاسعادهم فى ظل إسلام
سيقى ، هو التحرر من العثمانيين .

فقال تحتمس الثالث :

ـ وبدأت مشكورًا فى استرداد بعض امبراطوريتى .

وقال امنمحعت الأول (وكان ممن جاءوا فى دورهم من قبل ، وحكم له
لجلوس بين الخالدين) :

ـ لم تنتفع بوصيتى التى دونتها عقب مؤامرة دبرت فى قصرى ، بيد أقرب
مربين لى ، وكدت أهلك ضحية لها !

فقال على بك الكبير :

ـ الحق أنى لم أسمع عنها . وقد كان لى فى كتاب الله وسنة رسوله ما يكفينى .
كن «الحذرَ لا ينجى من القدر» .

فقال أوزوريس :

ــ إنك تستحق عندنا كرسى الخلود . وسنسجل ذلك فى تزكيتنا لك .

٢١

ونادى حورس :

ــ السيد عمر مكرم .

فدخل رجل أقل من الطويل وفوق المتوسط ، بنيانه مستقيم ، ومضى فى كفنه حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ــ ولدت فى أسيوط ، وتلقيت العلم والأخلاق والدين على يد الصفوة . ثم تبوأت نقابة الأشراف . ودأبت على الدفاع عن الشعب المعذب . ولما جاء الفرنسيون لغزو مصر ، دعوت الشعب للقتال ، وسرت فى طليعته . ولكن جيوشنا انهزمت ، واحتل الفرنسيون القاهرة. وقد اختارنى الفرنسيون لعضوية «الديوان[1]» نبحث عن المقابل له الآن رفضتها باباء. وهاجرت إلى سوريا تاركًا أموالى وأملاكى عرضة للنهب . ولما غزا الفرنسيون سوريا ، أعادنى نابليون إلى مصر مكرّما . ولكنى اعتزلت فى بيتى ولما ثارت القاهرة كنت على رأس ثورتها . فلما أُخمدت بقسوة هاجرت من مصر ثانية . ولم أعد إلّا بعد جلاء الفرنسيين . وتزعمت الثورة على المماليك ، وعلى الوالى التركى ــ ثم بايعت حاكمًا جديدًا (محمد على باشا) لما لمست فيه من ميل إلى المصريين ، وجنوح إلى العدل والاستقامة . وحتى ذلك الحاكم قاومته ، لما تناسى تعهده لنا ، فنفانى ، وانتهت حياتى فى المنفى ..

وتكلم أبنوم ، فقال :

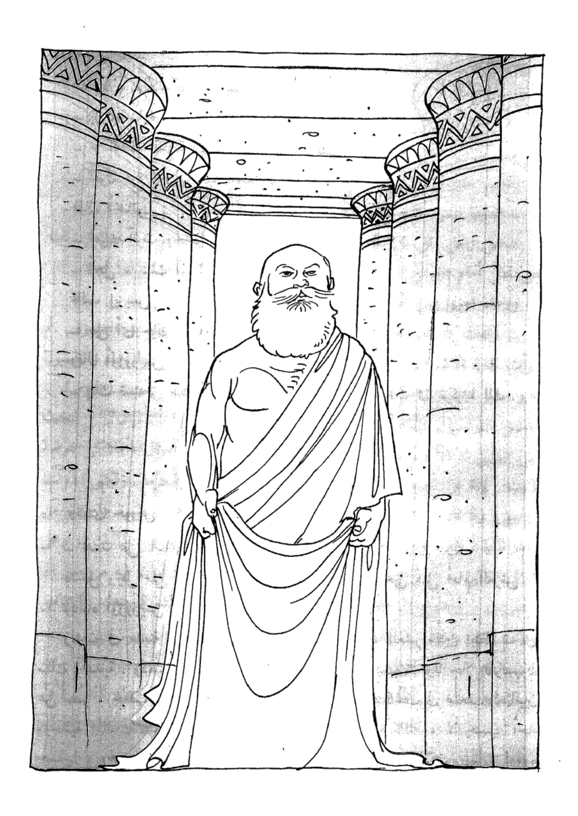
ــ إنك فرد من الشعب ، كرّس حياته للدفاع عن الشعب ــ دعاه للقتال لأول مرة منذ ثورتى المباركة . وثار على الحاكم الأجنبى ، وولىّ بقوة الشعب حاكمًا

(١) مما يشبه مجلس الشورى حاليًا

جديدًا . خبرنى ، أكان الحاكم الجديد من أبناء الشعب أيضًا ؟
فأجاب السيد عمر مكرم :
ـ كلا ، ولكنه كان مسلمًا وظهر لى عادلاً .
ـ يا للخسارة ، ولماذا لم تستول على الحكم ؟
ـ ما كانت الدولة العثمانية توافق على ذلك .
ـ أقول مرة أخرى ، يا للخسارة ..
فقال أخناتون :
ـ لعلك آثرت وحدة الإسلام .. دين الإله الواحد ؟
ـ أجل ، ذلك ما آثرته كمؤمن بالله ورسوله .
قالت إيزيس :
ـ على أى حال .. فإنى سعيدة بهذا الابن .
وقال أوزوريس :
ـ إنك تستحق مكانك بين الخالدين : وسنسجل ذلك فى تزكيتنا لك .

٢٢

ونادى حورس :
ـ محمد على باشا .
فدخل رجل ملىء ، قوى البنيان مستقيمه . وتقدم حتى مثل أمام العرش .
ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :
ولدت فى مدينة قولة ـ نشأت يتيمًا ـ ولما جاوزت العشر سنين انتظمت فى سلك الجندية . وذهبت إلى مصر ضمن حملة لقتال الفرنسيين . ولما جلا الفرنسيون عن مصر ، جعلت أدرس الأحوال وأفكر فى المستقبل . فتكشّف لى ضعف العثمانيين ووحشية المماليك الذين يحكمون باسمهم . وانتبهت إلى قوة ثالثة ، لا يحسب أحد حسابها ، وهى قوة أهالى البلاد وزعمائهم . فقررت أن أوثق علاقتى بهم ، لعلهم يصلحون أساسًا ، أقيم عليه دولة جديدة ، تستعيد من الماضى أمجاده الغابرة .



ونجحت فى ذلك أيما نجاح - حتى خلع الأهالى الوالى التركى ، وبايعونى محله - واعترف الباب العالى[1] بالأمر الواقع ، فاستتب لى الأمر. وشرعت فى العمل ، ولم أكف عنه حتى نهاية عمرى .

تخلصت من المماليك وهم الشر المقيم . وتلقيت من الباب العالى أمرًا بمحاربة الوهابيين فى الجزيرة العربية ، فانتصرت عليهم . وكوّنت جيشًا من المصريين ، وفتحت السودان .

وأنشأت للجيش مدارس ومصانع . كما أنشأت أسطولاً مستعينًا فى ذلك كله بالخبراء الفرنسيين .

ولم أغفل الإصلاح . فنظمت الإدارة والأمن ، وأدخلت زراعات جديدة كالقطن والنيلة والأفيون ، وغرست الأشجار والحدائق . ومن آثارى الكبرى القناطر الخيرية .

كما أنشأت مدارس للطب ، وبنيت المستشفيات - وأرسلت البعثات من أبناء البلاد لفرنسا ، بلد الحضارة الحديثة . كما أنشأت أول مطبعة فى الشرق وهى مطبعة بولاق .

وطلب منى الباب العالى أن أحارب عنه المتمردين فى المورة والشام . فحققت انتصارات عظيمة ، حتى حلّ الرعب فى قلب الباب العالى نفسه . فأراد أن يوقفنى عند حدى - ولكنى حاربته ، وغزوت بلاده ، وكدت أستولى على عاصمته لولا تدخل الدول الأجنبية الكبرى ، التى خافت أن تتجدد دولة الإسلام على يدى - وتجمعت علىّ هذه الدول ، واضطرتنى للخضوع للباب العالى ، نظير أن يجعل حكم مصر وراثيًا فى بيتى .

واضطررت لتصفية الجيش ، وكثير من المدارس والمصانع ، وساءت حال البلاد . ولم أحتمل النهاية ففقدت عقلى .. ثم حياتى .

قال خوفو :

- كأنها أسرة فرعونية جديدة ، رغم أصلها الأجنبى - وقال تحتمس الثالث :

---

(١) مقر حكم الخلافة العثمانية بتركيا

ـ لقد أعدت امبراطوريتى ، وأنى أشهد لقائدك بالبراعة . ولكنك فقدتها فى أثناء حياتك . فهى أقصر الامبراطوريات عمرًا فى التاريخ .

وقال تحتمس الثالث :

ـ إنى أشهد لك بالعظمة . وعلى ضوء ذلك أفهم غرورك . وكان بودى أن أتسامح معك ، لولا النهاية السريعة الأسيفة لامبراطوريتك وهى تعنى أن إدراكك ـ رغم ذكائك ـ كان ناقصًا . لم تدرك أبعاد الموقف الدولى جيدًا ، فتحديته ، وأنت لا تدرى ، وعرضت نفسك لقوة لا تقدر عليها .

ـ اعتقدت أن فرنسا ستقف إلى جانبى حتى النهاية .

فقال له الحكيم بتاح حتب :

ـ هذا أيضًا لا يدفع عنك تهمة قِصر النظر .

فقال محمد على :

ـ كانت هناك فرصة مواتية لتجديد دولة الإسلام انطلاقًا من مصر الفتية .

فقال أخناتون :

ـ إنى أدرك ذلك تمامًا . وأحيي طموحك لاحياء دولة الواحد الأحد .

فقال الملك خوفو :

ـ ليتك وضعت عبقريتك وأحلامك فى تقوية مصر ، وقنعت بذلك .

وقال أبنوم :

ـ استخدمت الفلاح فى سبيل الأرض والدولة . ومهما يكن من أمر ، فلن أنسى لك فضل دفعك الفلاحين إلى مسرح الإدارة والسياسة والعسكرية والعلم .

وهنا قالت إيزيس :

ـ من أجل ذلك أعتبر هذا الحاكم الأجنبى من أبنائى .

وقال أوزوريس :

ـ لو كانت هذه المحكمة هى صاحبة الفصل فى تقرير مصيرك ، لوجهت إليك نقدًا قاسيًا ، ثم حفظت لك حقك فى مقعدك بين الخالدين .

وسنرفع بشأنك تقريرًا إلى محكمتك الإسلامية ، ينوّه بأعمالك الجليلة ، وسيعتبر فى حملته تزكية لشخصك من مصر وآلهتها .

٢٣

ونادى حورس :

ـ أحمد عرابى .

فدخل رجل مائل للطول ، ممتلئ الجسم بعض الشيء ، ذو رزانة ووقار . فتقدم حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ حفظت القرآن صغيرًا بقريتى بالشرقية ، وانتظمت فى سلك الجندية فى الرابعة عشرة . وصلت إلى رتبة قائمقام (عقيد) فكنت أول مصرى يصل إلى هذه الرتبة . وكانت الرتب الكبيرة وقفا على الشراكسة . وكان المصرى محتقرًا فى وطنه . فأقنعت بعض الزملاء بالمطالبة بعزل وزير الحربية الشركسى المتحيز ، فقبض علينا . فثار الجند الوطنيون حتى أفرج عنا . ولمست ما يعانيه الشعب من ظلم ، فتحركت بالجيش إلى قصر عابدين ، وطالبت الخديو باسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب . فقال لى «أنا ورثت ملك هذه البلاد , وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا» . فقلت «لقد خلقنا الله أحرارًا ، ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا ، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم» .

وقد انتصرنا على أعداء الشعب ، وتكون مجلس نيابى ووزارة وطنية . ثم تدخلت الدول الأجنبية لمنع المصريين من تولى شئونهم خوفًا على مصالحها . وخان الخديو الوطن ومعه بعض الانتهازيين . واتفقوا مع أعدائنا الإنجليز . ودافعنا عن وطننا بكل ما نملك ، ولكننا انهزمنا . وحوكمنا ، وحُكم علينا بالنفى المؤبد ومصادرة أملاكنا .

وتكلم الملك خوفو فقال :

ـ ولكنك تحديت الجالس على العرش ، وخاطبته بما لا يُخَاطب به الملوك .

فقال أوزوريس :

ـ تغيّر الزمان أيها الملك . فلم يعد الملوك يحكمون نيابة عن الآلهة . صاروا يحكمون بالمشاركة مع الشعوب .

فقال خوفو :
ـ مشاركة الفلاحين فى الحكم ، تعنى الفوضى .
فقال أبنوم :
ـ بل هى وثبة كبرى فى طريق الخير والتقدم .
وقال أحمد عرابى :
ـ كان الخديوى ورجاله من عنصر أجنبى .
فقال الملك مينا :
ـ لقد قامت وحدة مصر على عناصر بشرية متنوعة الأصل ، اندمجت جميعها فى الوطن ، وأخلصت للعرش .
فقال أحمد عرابى :
ـ لم أكافح إلا العناصر التى رفضت الاندماج . والدليل على ذلك أن حزبى كان فيه وطنيون من أصل شركسى .
وتكلم تحتمس الثالث ، فقال :
ـ كان الموقف يتطلب قيادة عسكرية خارقة فى عبقريتها . وللأسف لم يتهيأ لك ذلك .
فقال أحمد عرابى :
ـ بذلت أقصى ما لدىّ .
وقال رمسيس الثانى :
ـ كان يجب أن تقاتل حتى الموت بين جندك .
وقال أبنوم :
ـ وكان يجب أن تقضى على جميع أعدائك ، لتقضى على الخيانة فى مهدها .
فقال اخناتون :
ـ أنت رجل طيب القلب . فحدثت لك النهاية التى تحدث للقلوب الطيبة .
وقال الحكيم بتاح حتب :
ـ هكذا .. ثرت من أجل حرية الشعب ، فجررت عليه احتلالاً أجنبيًا .
وهنا قالت إيزيس :

ـ هذا ابن امتلأ قلبه بالنوايا الطيبة . ووهب شعبه ما يملك من حب غير محدود ، وقدرات محدودة . وقد تآمر الأعداء على تصفية ثورته . ولكنهم لم يستطيعوا استئصال البذرة التى غرسها فى الأرض الطيبة .

وقال أوزوريس :

ـ إنى أعتبرك نورًا تألق فى الظلمات التى أطبقت على وطنك ـ وقد عوقبت فى حياتك بما يكفّر عن أخطائك . فعسى أن تحظى بالبركات فى ساحة محكمتك . وسننوه بفضلك .. بما تستحقه .

٢٤

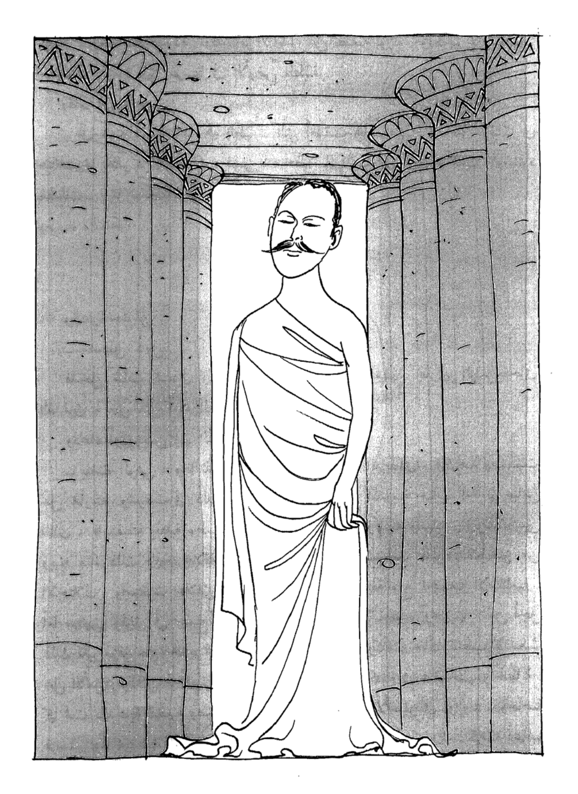
ونادى حورس :

ـ مصطفى كامل .

فدخل شاب ممشوق القامة ، عذب الملامح . ومضى عارى الرأس حافى القدمين ، حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ بلغت الوعى ، وأنا تلميذ ، فى عصر الاحتلال البريطانى . فكرهته وصممت على محاربته. وشرعت فى ذلك وأنا تلميذ . وزارنا فى المدرسة جناب الخديو عباس الثانى ، فاستقبلته بخطبة وطنية حماسية ، استجابت لها وطنيته وشبابه . وتوثقت بينى وبينه منذ ذلك اليوم علاقة وثيقة . فمضى يمدنى بالتشجيع والمال للتخلص من الاحتلال . واستقرت علاقتى على نفس النهج مع الخليفة ومع الجمعية الإسلامية . أما وجهتى وقبلتى فى جميع الأحوال ، فكانت استقلال مصر وحريتها . من أجل ذلك تغيّر موقفى من الخديو عندما اتفق مع الاحتلال . وكانت حال الشعب لا تبعث على الأمل . ولكنى لم أقصر فى إيقاظ وعيه الوطنى بالكلمة فى الصحف والخطابة . كما قمت بالدعاية لقضية وطنى فى الخارج ، حتى عرفها الأحرار فى أوروبا ، وخاصة فرنسا . ولما ارتكب الإنجليز جريمتهم الكبرى فى قرية دنشواى ، استنكرت أعمالهم الوحشية ، ونددت بالأحكام التى أصدرتها المحكمة الزائفة على أهل القرية الأبرياء .



فزعزعت عرش طاغية الإنجليز فى مصر حتى اضطرت بلاده إلى استدعائه . ثم أسست الحزب الوطنى . وهو أول حزب سياسى منظم أنشئ فى مصر ، تضمن برنامجه الجلاء والدستور فى ظل الدولة العثمانية . وواظبت على الجهاد فى الداخل والخارج حتى أسلمت الروح فى عز الشباب .

وتكلم بساماتيك الثالث (سبق أن جاء فى دوره ، وحكم له بالجلوس بين الخالدين) وقال :

ـ لقد عاصرت الاحتلال الفارسى مثلما عاصرت أنت الاحتلال الإنجليزى . وحاولت مثلك إيقاظ الوعى الوطنى . فلما علم قمبيز (ملك الفرس) بأمرى قتلنى دون تردد . فكيف تركك الإنجليز دون عقاب ؟

فقال مصطفى كامل :

ـ كان الاحتلال قد تمكن من تثبيت سيطرته الكاملة على البلاد . فلم ير بأسا من منح معارضيه شيئا من الحرية ، استهانة بهم فى الواقع ، وتظاهرا أمام العالم بأنه يعطينا الحرية .

ـ زمانك وفرّ لك من الأمان ما لم يوفر لى بعضه . والحق أنى لم أعرف مجاهدا سعيد الحظ مثلك . حظيت بتأييد الخديو والخليفة والجمعية الإسلامية . وهاجمت عدوك فى الداخل والخارج دون عقاب . واكتسبت مجدا وشهرة دون أن تدفع شيئا . لم تقتل كما قتلت أنا . ولم تُنف كما نفى أحمد عرابى .

فقال مصطفى كامل :

ـ أحمد عرابى جرّ على بلاده الاحتلال .

فقال له أبنوم :

ـ كيف يتهم الرجل ، وهو ما ثار ونفى إلا دفاعا عن شعبك ؟

فقال مصطفى كامل بإصرار :

ـ إنى أعتبره المسئول الأول عن الاحتلال .

فقال أبنوم :

ـ إنك شاب وطنى متحمس صادق النية سعيد الحظ . عشت حياتك فى جو معطر بأبهة العرش والخلافة والحضارة الفرنسية . لم تشم رائحة العرق ، ولم تكابد آلام

الجهاد الحقيقية ، ولم تتورّع عن ظلم الثائر الحقيقى .

وهنا قالت إيزيس :

ـ إنه الابن الذى أيقظت حماسته الوجدان الوطنى بعد أن كاد الاحتلال يخمد أنفاسه .

وقال أوزوريس :

ـ لم يكن بوسعك أن تفعل خيرا مما فعلت . ولن ينسى لك فضل كلماتك . فأذهب إلى محكمتك مصحوبا بدعواتنا القلبية .

٢٥

ونادى حورس :

ـ محمد فريد .

فدخل رجل متوسط القامة ، ممتلئ الوجه . وتقدم عارى الرأس ، حافى القدمين ، حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ انحدرت من أسرة عريقة فى الارستقراطية . وشاركت مصطفى كامل فى موقفه الوطنى منذ بدايته . وبسبب ذلك ، استقلت من الحكومة ، وتفرغت للقضية الوطنية قبل كل شيء . وتوثقت العلاقة بينى وبين مصطفى . فرشحنى لخلافته فى رياسة الحزب . وقد سرت على نهجه فى الوطنية والخطابة والكتابة ، حتى قبض علىّ وزج بى فى السجن . وفى السجن ساومونى كى أخفف من عنف موقفى لقاء العفو ، فرفضت أى مساومة . ولما خرجت من السجن ، كنت أصلب عودا ، وأشد مراسا . وقمت برحلات فى البلاد أدعو فيها للوطنية . فدُبّرت مؤامرات لادخالى السجن مع قادة الحزب الكبار . فقر قرارنا على الهجرة ومواصلة الجهاد فى الخارج . وأحكمنا التدبير للهرب فى الوقت المناسب . ونجحنا فى ذلك . وبقدر ما أنجزنا من كسب لقضية مصر فى الخارج . بقدر ما تعرض الحزب فى الداخل للضعف والتفكك . وكابدنا المرّ من الحنين إلى مصر والأهل ، ومن تخلى الكثيرين عنا . وقامت فى مصر

ثورة ١٩١٩ ، ثورة غير متوقعة . قامت وأنا منسىّ فى المنفى ، وآخرون يتربعون على كراسى الزعامة . وقد أظهرنا رضانا على رجالها ، مع اعتقادنا بعدم إخلاص أكثرهم . وهنأنا الأمة على ثورتها . وحيينا ذكرى شهدائها . ودعوناها إلى الصمود حتى النهاية . وانتهت حياتنا فى المنفى .

وتكلم بساماتيك الثالث ، فقال :

ـ زعامة غطّى عليها ما تعرضت له من اضطهاد .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ كان بوسعك أن تنعم بحياة مترفة وجاه كبير ، كسائر رجال طبقتك الثرية . ولكنك رميت ذلك كله ، واخترت النضال والعذاب فى سبيل مصر . إنك رجل عظيم .

أما أبنوم ، فقال :

ـ خبّرنى ، كيف يترك زعيمٌ ، أمته فى محنة ، ليجاهد فى الخارج ؟

فقال محمد فريد :

ـ كان الجهاد فى الخارج ضمن خطتنا الوطنية ، منذ أيام مصطفى كامل ..

فقال أبنوم :

ـ قد يُقبل كعمل إضافى ، يستكمل به العمل الأصلى فى الداخل . أما أن تهاجر أنت والقادة تاركين حزبكم بلا قيادة حقيقية ، فهو تصرف بعيد عن الحكمة . لا أنكر وطنيتك ، ولكن ..

فقالت إيزيس :

ـ أما أنا فأعتبره من خير أبنائى خلقا وإخلاصا ووطنية .

ولم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل ، مع مراعاة ظروف مولده ونشأته .

وقال أوزوريس :

ـ لك منا تزكية يسندها الحب والاحترام . فأذهب بسلام إلى محكمتك مع أصدق تمنيات التوفيق .

٢٦

ونادى حورس :

ـ سعد زغلول .

فدخل رجل طويل القامة ، مهيب الطلعة ، قوى القسمات ، جذاب الملامح . وتقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولدت فى إبيانه . درست فى الأزهر . تتلمذت على جمال الدين الأفغانى . عملت محررا بالوقائع المصرية تحت رئاسة وأستاذية محمد عبده . انضممت إلى العرابيين فى ثورتهم . وفى أول عهد الاحتلال البريطانى اعتقلت كعضو فى جمعية الانتقام ، وفصلت من وظيفتى . فعملت فى المحاماة ، فالقضاء . اخترت وزيرا للمعارف ثم وزيرا للعدل . وعقب انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان الهدنة ، توليت زعامة الحركة الوطنية . وأقمتها على أساس متين من الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين . وناديت بحق مصر فى الحرية والاستقلال . فقبضت علىّ السلطات البريطانية ، ونفتنى إلى جزيرة مالطة . وما أن ذاع الخبر ، حتى قامت الثورة الشعبية على نفيى ، وطالبت بالاستقلال ، مما اضطر انجلترا إلى الإفراج عنى . وسافرت مع أعضاء الوفد المصرى إلى باريس ، لعرض قضيتنا على مؤتمر الصلح هناك . فأغلق أبوابه فى وجوهنا . ودخلنا فى مفاوضات مع الإنجليز دون نتيجة . وحدث انقسام فى الوفد . ورجعت إلى مصر . ثم نفيت مرة أخرى إلى جزر سيشيل فى المحيط الهندى . ولم يفرج عنى إلا سنة ١٩٢٣ . وتوليت الوزارة سنة ١٩٢٤ بعد انتخابات شعبية . ودخلت فى المفاوضات التى سرعان ما فشلت . واضطررت إلى الاستقالة عقب اغتيال أحد كبار الإنجليز . ثم ائتلفت الأحزاب أمام ديكتاتورية الملك فؤاد . وتوليت رياسة مجلس النواب ، تاركا رياسة الوزارة للدستوريين . ودارت المفاوضات من جديد . ولكنى غادرت الدنيا ، قبل أن أعرف نتائجها .

وتكلم أبنوم ، فقال :

ـ قمت أنا بأول ثورة شعبية فى نهاية الدولة القديمة ، وقمت أنت بالثورة الشعبية

الثانية بعد آلاف السنين . فأنت أخى وخليفتى وحبيبى .

فقال الملك خوفو :

ـ هناك فرق بين الثورتين يجب أن يذكر . فثورة أبنوم كانت ثورة العامة على الصفوة ، أما ثورة سعد زغلول فكانت ثورة شعب مصر كله ، فقراء وأغنياء ، على الاحتلال الأجنبى .

وقال الملك مينا :

ـ لقد وحّدت المصريين ، كما وحدت أنا مملكتهم . فأنت فى ذلك صديقى وخليفتى .

وسأله أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ رغم ما تحقق لك من زعامة بعد الثورة ، فقد قبلت العمل فى ظل الاحتلال قبل الثورة ، ولم تنضم للحزب الوطنى . ما تفسير ذلك ؟

فقال سعد زغلول :

ـ كان الحزب الوطنى يدعو إلى مبادئ خيالية . منها : لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . ومنها مقاطعة الوظائف العامة لهيمنة الإنجليز عليها . كيف نترك الوظائف العامة للأجانب ؟ لقد قبلت الحياة الرسمية لأمارس من خلالها ، ما استطعته من مقاومة ، ومن أداء خدمات لوطنى كان فى أشد الحاجة إليها : وقد اعترف بذلك خصومى قبل أصدقائى .

فقال أوزوريس مخاطبا الجميع :

ـ نحن فى هذه المحكمة لا نناقش إلا الأعمال الفاصلة .

ثم خاطب سعدا قائلا :

ـ قال خصومك إن الثورة قامت وأنت فى المنفى . وأنك لم تفعل شيئا لاشعالها . بل إنك دهشت لقيامها ، وكانت حدثا غير متوقع . فما قولك فى ذلك ؟

فقال سعد زغلول :

ـ كانت حال البلاد تدعو لليأس . وأعترف بأننى دهشت لقيام الثورة ، كما دهش الزعيم السابق محمد فريد .

ولكنى لم أقصر فى تهيئة الجو لها بالخطابة فى كل مناسبة ، والاجتماع بالناس فى

بيتى ، وفى دعوتهم فى الريف والمدن مما عبأ الشعور القومى . والثورة قامت احتجاجا على نفيي . فكان شخصى فى الواقع هو مشعلها المباشر .

فقال أوزوريس :

ـ وقيل أيضا ، إن تعصبك لزعامتك هو ما دفع العقلاء من زملائك للانشقاق عليك . فما قولك فى ذلك ؟

فقال سعد زغلول :

ـ المسألة أننى اندمجت فى الثورة وآمنت بها ، أما العقلاء فقد كرهوا الثورة وخافوها وقنعوا بالحلول الزائفة .

وقال بعض زملائك ، كان يجب أن تبقى على رأس الثورة ولا تقبل رئاسة الوزارة ؟

فقال سعد زغلول :

ـ كانت وزارتى امتدادا للثورة على المستوى الرسمى .

فقال أبنوم :

ـ كنت أفضل أن تأخذ برأى هؤلاء الزملاء .

وهنا قالت إيزيس :

ـ لتبارك الالهة هذا الابن العظيم البار . لقد برهن على أن شعب مصر قوة لا تقهر ولا تموت .

وقال أوزوريس :

ـ إنك أول مصرى يتولى الحكم منذ العهد الفرعونى . وتوليته بإرادة الشعب . من أجل ذلك أهبك حق الجلوس بين الخالدين من أجدادك . وسوف تمضى بعد ذلك إلى محكمتك فى الآخرة ، مصحوبا بتزكيتنا وصادق أمانينا .



٢٧

ونادى حورس :

ـ مصطفى النحاس .

فدخل رجل قوى الجسم والوجه ، مائل للطول . تقدم فى سيره حتى مثل أمام العرش .

ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولدت فى سمنود ، فى أسرة من أبناء الشعب الفقراء . وبفضل اجتهادى أتممت تعليمى . ولتفوقى عينت فى القضاء ، فعرفت بالعدل والنزاهة . وكنت من أنصار الحزب الوطنى ، فكنت زميلا لرئيسه فى المدرسة الخديوية . وعند تأليف الوفد برياسة سعد زغلول ، اختارنى عضوا فيه . ونفيت معه إلى سيشيل عام ١٩٢١ . واشتركت فى وزارته الشعبية الثورية . وعقب وفاته انتخبت رئيسا للوفد . وحملت عبء الجهاد فى سبيل الاستقلال والحياة الديمقراطية ربع قرن من الزمان . وقد توليت الوزارة سبع مرات . وجرت إقالتى منها ست مرات ، لخلافات مع الإنجليز أو الملك . وفى عام ١٩٣٦ ، وتحت ضغط التهديد بحرب عالمية ، قبلت الائتلاف مع الأحزاب . وعقدنا معاهدة مع الإنجليز ، اعترفت باستقلال مصر ووعدت بالجلاء بعد عشرين عاما . وقامت الحرب العالمية فى فترة حكم استبداد ملكى ، واتهم الملك (فاروق) بالاتصال بأعداء الإنجليز ، فنشبت أزمة سياسية خطيرة ، وفكّر الإنجليز فى خلع الملك . وتقدّمت لانقاذ البلاد والعرش ، وألّفت وزارة فى ظروف عسيرة . ولما انتهت الحرب بانتصار الإنجليز ، شرعت فى المطالبة بالجلاء الفورى . ولكن الملك أقالنى ، ورجع الملك إلى استبداده . وسارت الأمور من سيىء إلى أسوأ ، حتى اضطر الملكَ إلى الموافقة على استفتاء الشعب عام ١٩٥٠ ، فرجعت إلى الوزارة . وفاوضت الإنجليز من أجل الجلاء . ولما لم أجد منهم استجابة ، ألغيت المعاهدة ، وأعلنت الجلاء . فتآمر علىّ أعدائى فى الداخل والخارج ، واستطاع الملك أن يتخلص منى . وقامت ثورة يوليو ، واضطررت إلى اعتزال السياسة حتى وافانى الأجل .

فقال أوزوريس :

ـ يهم الحاضرين أن يعرفوا بعض الانجازات التى قدمتها فى أثناء توليكم الوزارة .

فقال مصطفى النحاس :

ـ بالرغم من أن الشعب لم يحكم إلا ثمانية أعوام ، نظير تسعة عشر عاما استبدّ فيها الملك وأحزاب الأقلية بالسلطة ، وبالرغم مما تعرضت له من اضطهاد وعسف ومحاولات متكررة لاغتيال حياتى ، فقد وفقنى الله إلى تحقيق خدمات غير قليلة . منها على سبيل المثال : إلغاء الامتيازات الأجنبية ، إلغاء صندوق الدين ، تأسيس جامعة الدول العربية ، استقلال القضاء ، استقلال الجامعة ، قانون التوظف ، منع الأجانب من تملك الأراضى الزراعية ، التعويض عن إصابات العمل والتأمين الاجبارى ضدها ، الاعتراف بنقابات العمال ، فرض استعمال اللغة العربية فى الشركات الأجنبية ، الضمان الاجتماعى ، ديوان المحاسبة ، مجانية التعليم الابتدائى والثانوى والمتوسط .

وقال أبنوم :

ـ مرحبا بالثائر الشعبى الثالث فى حياة شعبنا . وقد استمد قوته من إيمانه بشعبه وإلهه ، واتسمت حياته بالكفاح الطويل والنزاهة ، وعاش فقيرا ومات فقيرا .

وقال الملك أخناتون :

ـ تقبل حبى أيها الزعيم . أنك مثلى تفانيت فى الإيمان بالله الواحد ، والإخلاص للمبادئ الطاهرة . ومثلى أيضا فى حب البسطاء من الشعب والاختلاط بهم ، ومثلى أخيرا فيما حظيت به من نشوة النصر ، وما ابتليت به من الجحود والهزيمة . ولكن أبشر ، فالنصر فى النهاية لنا ..

وهنا قالت إيزيس :

ـ وهذا ابن أصيل من أبنائى البررة .

فقال أوزوريس :

ـ أهبك حق الجلوس مع الخالدين حتى نهاية المحاكمة ، ثم تمضى إلى محكمتك مشفوعا بأكرم تزكية .

٢٨

ونادى حورس :

ـ جمال عبد الناصر.

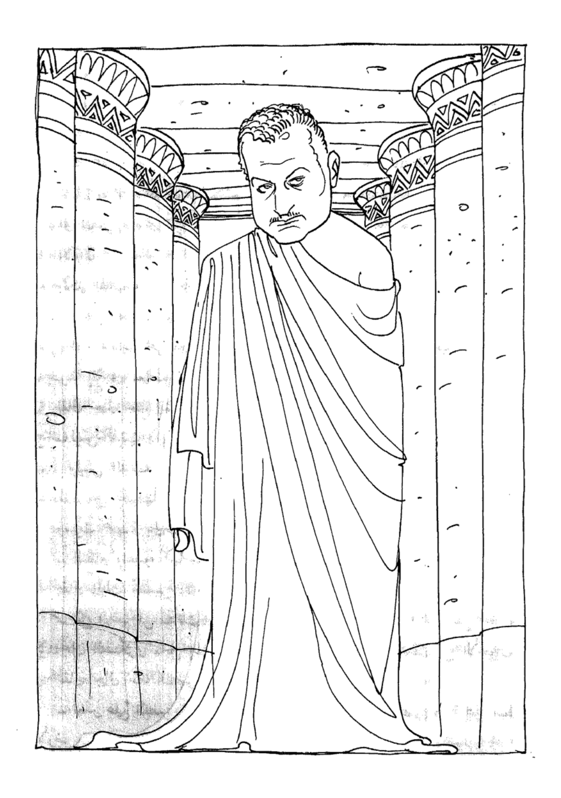
فدخل رجل طويل القامة ، واضح الملامح ، عظيم الشخصية ، ومضى فى سيره حتى وقف أمام العرش .

ودعاه أوزوريس إلى الكلام ، فقال :

ـ أنتمى إلى قرية بنى مر من أعمال أسيوط ، ونشأت فى أسرة فقيرة من أبناء الشعب ، فكابدت مرارة العيش وشدته . وتخرجت من الكلية الحربية عام ١٩٣٨ . واشتركت فى حرب فلسطين. وحوصرت مع من حوصر فى الفالوجا . وقد هالتنى الهزيمة ، وهالتنى أكثر جذورها الممتدة فى أعماق الوطن . فخطر لى أن أنقل المعركة إلى الداخل ، حيث أعداء البلاد الحقيقيون. وأنشأت فى سرية وحذر ، تنظيم الضباط الأحرار. وتابعت الأحداث ، انتظارا للخطة المناسبة ، للانقضاض على النظام القائم وقد حققت هدفى فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ثم تتابعت إنجازات الثورة ، مثل إلغاء النظام الملكى ، واستكمال استقلال البلاد بالجلاء التام ، والقضاء على الاقطاع بإصدار قانون الإصلاح الزراعى ، وتمصير الاقتصاد ، والتخطيط لإصلاح شامل فى الزراعة والصناعة ، يستهدف خير الشعب وتذويب الفوارق الطبقية ، وبنينا السد العالى ، وأنشأنا القطاع العام متجهين نحو طريق الاشتراكية ، وكونا جيشا حديثا قويا ، ونشرنا الدعوة للوحدة العربية ، وساندنا كل ثورة عربية أو إفريقية ، وأممنا قناة السويس ، فكنا منارة وقدوة للعالم الثالث كله فى نضاله ضد الاستعمار الخارجى والاستغلال الداخلى ، وحظى الشعب الكادح فى عهدى بعزّة وقوة لم يعرفها من قبل ، ولأول مرة يشق طريقه إلى المجالس التشريعية والجامعات ويشعر بأن الأرض أرضه والوطن وطنه .

وقد تربصت بى قوى الاستعمار حتى أنزلت بى هزيمة منكرة فى ٥ يونيه ١٩٦٧ ، فزلزلت العمل العظيم من جذوره ، وقضت علىّ بما يشبه الموت قبل موافاتى لأجلى بثلاثة أعوام .



وقد عشت مصريا عربيا مخلصا ، ومت مصريا عربيا شهيدا .

وتكلم الملك رمسيس الثانى ، فقال :

ـ دعنى أعرب لك عن عظيم حبى وإعجابى . وحبى لك هو امتداد لحبى لذاتى . فما أكثر أوجه الشبه التى تجمع بيننا . كلانا يشعّ عظمة تملأ الوطن وتتجاوز حدوده ، وكلانا جعل من هزيمته نصرا فاق كل نصر. وكلانا لم يقنع بأعماله المجيدة الخالدة ، فأغار على أعمال الآخرين ممن سبقوه . وقد ساعدنى الحظ بأن توليت عرش مصر وهى سيدة الأمم ، أما أنت فحكمتها وهى أمة صغيرة وسط عمالقة . وقد وهبتنى الآلهة طولا فى العمر وقوة فى الروح والجسد ، وضنّت عليك إلا بالقليل ، فعاجلك الأجل قبل الأوان .

وتكلم الملك مينا ، فقال :

ـ ولكن اهتمامك بالوحدة العربية فاق اهتمامك بالوحدة المصرية ، فحتى اسم مصر الخالد شطبته بجرة قلم . واضطررت العديد من أبناء مصر إلى الهجرة ، التى لم يمارسوها إلا فى فترات قهر عابرة .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ ليس الذنب ذنبى ، إذا توهم بعض المصريين أن الوحدة العربية تعنى الضياع لهم . وليس الذنب ذنبى ، إذا تحققت أعمال مجيدة على يدى ، بعد أن عجز السابقون عن تحقيقها . فالحق أن تاريخ مصر الحقيقى بدأ مع ٢٣ يوليه ١٩٥٢ .

وسرت همهمة بين الجالسين ، وأخذت تشتد ، حتى هتف أوزوريس :

ـ النظام والهدوء أيها السادة . افسحوا صدوركم لأى قول يقال ..

فقال الملك تحتمس الثالث :

ـ على الرغم من نشأتك العسكرية ، فقد أثبت قدرة فائقة فى كثير من المجالات إلا المجال العسكرى . بل إنك لم تكن قائدا له شأن ، بأى حال من الأحوال .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ تعذّر علىّ النصر على جيش متفوق فى التسليح وتؤيده أقوى دولة على سطح الأرض .

فقال أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ كان واجبك أن تتجنب الحرب ، وأن تكف عن استفزاز الدول الكبرى .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ كان ذلك يتناقض مع أهدافي . كما أني خدعت أكثر من مرة .

فقال الحكيم بتاح حتب :

ـ عذر أقبح من الذنب .

وقال سعد زغلول :

ـ لقد حاولت أن تمحو اسمي من الوجود ، كما محوت اسم مصر . رغم ذلك ، لم أضمر لك الرفض . واعتبرت تجنيك عليّ نزوة شباب ، يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة . لقد قامت الثورة العرابية ، فناضلت نضالا كريما ، وأُحْبِطت إحباطا أليما . وقامت ثورة ١٩١٩ ، فحققت من الانجازات المجيدة ما شهد به التاريخ . ولكن تكاثر أعداؤها حتى اجتاحها حريق القاهرة . ثم جاءت ثورتك ، فتخلصت من الأعداء ، وأتممت رسالة الثورتين السابقتين . وبالرغم من أنها بدأت كانقلاب عسكري ، إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده . وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها ، وأن تقيم حكما ديمقراطيا رشيدا . ولكن اندفاعك المضلل في الطريق الاستبدادي هو المسئول عن جميع ما حل بحكمك من نكبات ونتائج عكسية .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ كان يلزمنا فترة انتقال لتحقيق الأسس الثورية ..

فقال مصطفى النحاس :

ـ حجة دكتاتورية واهية .. طالما سمعناها من أعداء الأمة . لقد انهلت بدباباتك على القاعدة الوفدية الشعبية ، وعجزت عن إقامة بديل عنها . فظلت البلاد تعاني الفراغ . ووقعت في تناقض مؤسف بين عمل إصلاحي يعتبر في روحه امتدادا لروح الوفد ، وبين أسلوب حكم يعتبر امتدادا لحكم الملك والأقليات ، حتى قضى أسلوبك في الحكم على جميع النوايا الطيبة .

فقال جمال عبد الناصر :

ـ الديمقراطية الحقيقية ، كانت تعنى عندى تحرير المصرى من الاستعمار والاستغلال والفقر .

فقال مصطفى النحاس :

ـ وأغفلت الحرية وحقوق الإنسان . ولا أنكر أنك كنت أمانا للفقراء . ولكنك كنت وبالا على أهل الرأى والمثقفين ، وهم طليعة أبناء الأمة . انهلت عليهم اعتقالا وسجنا وشنقا وقتلا ، حتى أذللت كرامتهم ، وأهنت إنسانيتهم ، ومحقت إيجابيتهم ، وخربت بناء شخصياتهم ، والله وحده يعلم متى يعاد بناؤها . وهم الذين جعلت منهم ثورة ١٩١٩ أهل المبادرة والإبداع فى شتى النشاطات السياسية والاقتصادية والثقافية . بل أفسد استبدادك أجمل قراراتك . انظر كيف فسد التعليم ، وتفسّخ القطاع العام ، وكيف قادك التحدى للقوى العالمية إلى الهزائم المخجلة والخسائر الفادحة . لم تستفد من الرأى الآخر ، ولم تتعظ بتجربة محمد على ، وماذا كانت النتيجة ؟ .. دوىّ ، وجلجلة وأساطير فارغة تقوم على تلٍّ من الخرائب .. فقال جمال عبد الناصر :

ـ لقد نقلت وطنى من حال إلى حال ، كما نقلت العرب وسائر الأمم المغلوبة على أمرها . وسوف تعالج السلبيات حتى تزول ، وينساها الزمن ، ويبقى ما ينفع الناس . وعند ذلك يقر الناس بعظمتى الحقيقية .

فقال مصطفى النحاس :

ـ ليتك تواضعت فى طموحك . ليتك عكفت على إصلاح وطنك ، وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة .

إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم . إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن . ومكافحة الأمية أهم من مكافحة الامبريالية العالمية .

واآسفاه ، لقد ضيعت على مصر فرصة لم تتح لها من قبل .

فلأول مرة يحكمها ابن وطنى من أبناء البلاد ، دون مناوئ من ملك أو مستعمر .

ولكنه بدلا من أن يداوى ابن وطنه المريض ، دفع به إلى مباراة البطولة العالمية ، وهو مثقل بأمراضه .. فكانت النتيجة أن خسر هذا الابن البطولة وخسر نفسه ..

وهنا قالت إيزيس :

ـ إن فرحتى برجوع العرش إلى أحد أبنائى لا تقدر .. وأعماله الجليلة تحتاج إلى جميع جدران المعابد لتسجل عليها .. أما أخطاؤه .. فلا أدرى كيف أدافع عنها ؟

فقال أوزوريس :

ـ لو كانت محكمتنا هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى الحكم عليك ، لتطلب العدل منا ، التأمل والعناء الطويلين .. قبل أن نصل إلى حكمنا الأخير.

فقليلون من قدموا لبلادهم مثلما قدمت من خدمات ..

وقليلون من أنزلوا بها مثل ما أنزلت من إساءات ..

ولكن ، بالنسبة لأنك أول من يجلس على عرشها من أبنائى ، وأول من يخص الكادحين برعايته ..

فإننا نسمح لك بالجلوس بين الخالدين لحين انتهاء المحاكمة .. وستذهب بعد ذلك إلى حسابك فى الآخرة ، مؤيدا بتزكية مناسبة .

٢٩

ونادى حورس :

ـ محمد أنور السادات .

فدخل رجل متوسط القامة ، رشيق القد ، عميق السمرة . ومضى فى سيره حتى مثل أمام العرش . ودعاه أوزوريس للكلام ، فقال :

ـ ولدت فى قرية ميت أبو الكوم ، ونشأت فى أسرة فقيرة ، ووجدت عناء لا يستهان به كى أستمر فى الدراسة . وقد تشبعت بروح الوطنية منذ صغرى . وشاركت فى المظاهرات الوفدية . ثم أمكننى الالتحاق بالكلية الحربية بعد أن فتحت أبوابها لأمثالى من أبناء الشعب بعد معاهدة ١٩٣٦ .

ومنذ تخرجى ، هالنى وضع الجيش تحت سلطة البعثة العسكرية الإنجليزية . وخامرتنى أفكار للدعوة لثورة مسلحة ضد الإنجليز . فأنشأت أول تنظيم سرى فى الجيش عام ١٩٣٩ . وقد اتصلت بالإخوان المسلمين ، وأعجبت بنشاطهم . كما

حاولت أثناء الحرب الاتصال بالألمان (أعداء الإنجليز الذين يحتلون مصر) ، وعقدت العزم على اغتيال المتعاونين مع الإنجليز من المصريين . وقد قُبض علىّ نتيجة لذلك ، وحوكمت ، ولكنى نلت البراءة ، بل رجعت إلى خدمة الجيش . وفى ذلك الوقت ، اتصل بى جمال عبد الناصر وضمّنى إلى تنظيمه .

وقامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ . وتتابعت الأحداث ، حتى وافى الأجل جمال عبد الناصر . فخلفته فى منصبه فى ظرف بالغ الدقة .

وكنت على علم بالسلبيات التى نخرت فى عظام عبد الناصر . فتوثبت لاحداث ثورة جديدة تنقذ البلاد من الموت الذى تتردى فيه . قضيت على مراكز القوى . واتجهت على مهل ، نحو الأمان وسيادة القانون والديمقراطية .

وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فاجأت العدو المحتل (إسرائيل) ، بل فاجأت العالم بهجوم لم يتوقعه أحد . وحققت انتصارا أنقذ الروح العربية من القنوط ، وانتشل شرفنا من الهوان .

ثم قمت بمغامرة أخرى ، باقتحامى بلد الأعداء ، أدعو إلى تصفية الموقف بالكلمة لا بالسلاح . وانتهى سعيي الطويل إلى معاهدة كامب دافيد للسلام .

وناديت بالانفتاح لانقاذ الاقتصاد الوطنى . وتقدمت فى الديمقراطية خطوات جديدة . ولكن اعترضتنى عقبات غيّرت من حساباتى . فقد انحرفت المعارضة ، وهبّ التيار الدينى يهدد البلاد بالعنف . فوقفت من الجميع موقفا حازما لا مفرّ منه .

ولكن الأمور انتهت باغتيالى فى ذكرى اليوم الذى حققت فيه لوطنى .. عزّة النصر .

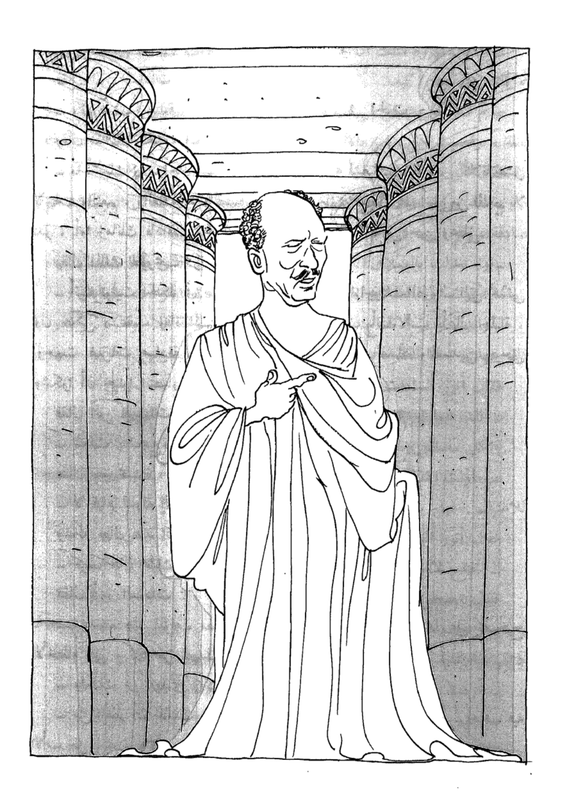
وتكلم الملك أخناتون ، فقال :

ـ أحييك كداعية من دعاة السلام . ولا أدهش لاتهام خصومك لك بالخيانة . فقد تلقيت منهم نفس التهمة لنفس السبب .

فقال تحتمس الثالث :

ـ يذكرنى انتصارك بانتصار رمسيس الثانى ، الذى انتهى بمعاهدة سلام ، والزواج من ابنة ملك الحيثيين :

فقال رمسيس الثانى :



ـ الحاكم مسئول أولا عن حياة شعبه . ومن هذا المنطلق ، يقوم بالحرب أو يجنح إلى السلام .

فقال أنور السادات :

ـ وقد آمنت بصدق ، بعدم جدوى الاستمرار فى الحرب .

وقال الملك أمنحتب الثالث :

ـ ما أشبهك بى ـ أيها الرئيس ـ فى حب الرفاهية لشعبك ولنفسك . كلانا عشق الأبهة ، والنعيم ، والعظمة ، والقصور . غير أن زمانى سمح لى بأن أنهل من النعيم بلا كَدَر ، أما زمانك فأذاقك الحلو والمر . دعنى أعرب لك عن حبى وعطفى .

وقال الملك حورمحب :

ـ أنت توليت الحكم فى ظروف تشبه ـ فى بعض نواحيها ـ الظروف التى تحدّتنى أول حكمى ، عقب وفاة الملك العجوز آى . وأعترف بأنك قمت بأعمال جليلة ، ووجهت ضربات صادقة ، ولكنك تهاونت فى معاقبة الفساد والمفسدين ، حتى أوشكوا أن يحيلوا انتصاراتك إلى هزائم .

فقال أنور السادات :

ـ شغلت بتشجيع الانفتاح عن الضرب على أيدى المفسدين .

فقال حورمحب :

ـ لا قيام لدولة إلا على الانضباط والقيَم .

وسأله جمال عبد الناصر :

ـ كيف هان عليك أن تقف من ذكراى هذا الموقف الغادر ؟

فقال أنور السادات :

ـ اتخذت هذا الموقف مضطرا . إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتها عن عهدك .

ـ ولكنك فى عهدى ، كنت راضيا ومشجعا وصديقا ؟

ـ من الظلم أن يحاسب إنسان على موقف له فى زمن رعب أسود ، خاف فيه الأب من ابنه ، والأخ من أخيه .

ـ والنصر الذى أحرزته ، ليس إلا ثمرة استعدادى الطويل له .

فقال أنور السادات :

ـ ما كان لمهزوم مثلك أن يحقق انتصارا . إننى أرجعت للشعب حريته وكرامته ، ثم قدته إلى نصر أكيد .

ـ ثم تنازلت عن كل شىء ، فى سبيل سلام مهين ، فطعنت وحدة العرب طعنة قاتلة ، وقضيت على مصر بالانعزال ..

فقال أنور السادات :

ـ لقد ورثت عنك وطنا يترنح على هاوية الفناء ، ولم يمد لى العرب يد عون صادقة ، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى ..

ـ واستبدلت بالعملاق الذى طالما ساندنا ، العملاق الذى طالما ناصبنا العداء .

ـ اتجهت إلى العملاق الذى بيده الحل . وصدقت الحوادث حساباتى .

ـ واندلقت فى الانفتاح ، حتى أغرقت البلاد فى موجة غلاء وفساد . وبقدر ما كان عهدى أمانا للفقراء ، كان عهدك أمانا للأغنياء واللصوص .

فقال أنور السادات :

ـ لقد عملت لخير مصر ، فوثب الأنتهازيون من وراء ظهرى :

وتكلم مصطفى النحاس ، فقال :

ـ حاولت اغتيالى ، وكدت تنجح ، لولا العناية الإلهية . ثم فقدت حياتك نتيجة للاغتيال . فهل ياترى لاتزال تؤمن به ؟

فقال أنور السادات :

ـ نحتاج لأضعاف عمرنا .. لكى نتعلم الحكمة .

فقال مصطفى النحاس :

ـ وسمعت عن دعوتك إلى الديمقراطية ، فدهشت .. ثم تبيّن لى أنك تريد حكما ديمقراطيا تمارس من على رأسه .. سلطاتك الديكتاتورية !

ـ أردت ديموقراطية ترعى آداب القرية ، وحقوق الأبوة .

ـ هذه ديموقراطية قبلية .

فقال سعد زغلول :

ـ هذا حق ، ولكن الديمقراطية الحقيقية تؤخذ ولا تمنح ، فلا تغال فى لومه ..

وقال مصطفى النحاس :

ـ واشتدت الضائقة بالناس ، وحدث ما يحدث عادة فى مثل تلك الظروف من مظاهر الفتن والتطرف . فتركت الأمور تستفحل كأنك لا تبالى . ثم انفجرت بغتة ، فألقيت بالجميع فى السجون ، فأغضبت المسلمين ، والمسيحيين ، والمتطرفين ، والمعتدلين .. وانتهى الأمر بمأساة المنصة ..

فقال أنور السادات :

ـ وجدت أنه لا مفرّ من ضربة حاسمة ، اتقاء لفوضى ، توشك أن تجرّ البلاد إلى حرب أهلية ..

فقال سعد زغلول :

ـ عندما يغتصب الحاكم حقوق شعبه ، فإنه يخلق من هذا الشعب خصما له . وعند ذلك تبدّد قوة البلاد الأساسية فى صراع داخلى .. بدلا من أن توجّه للعمل الصالح .

وهنا قالت إيزيس :

ـ بفضل هذا الابن ، رُدَّت الروح إلى الوطن ، واستردت مصر استقلالها الكامل ، كما كان قبل الغزو الفارسى . وقد أخطأ كما أخطأ سواه ، وأصاب أفضل مما أصاب كثيرون .

فقال أوزوريس :

ـ أرحب بك بين الخالدين من أبناء مصر ، وسوف تمضى بعد ذلك إلى حسابك فى الآخرة مؤيدا بتزكية مشرفة منا .

٣٠

قلّب أوزوريس عينيه فى الخالدين ، وقال :

ـ ها هى حياة مصر ، قد عرضت عليكم بكل أفراحها وأحزانها ، منذ وحدّها مينا ، وحتى استردّت استقلالها على يد السادات . فلعل لبعضكم رؤية يريد أن ينوّه بها ؟

وطلب الملك أخناتون الكلمة ، ثم قال :

ـ أدعو للاستمساك بعبادة الإله الواحد ، باعتباره الخلود والتحرر من أى عبودية أرضية .

وقال الملك مينا :

ـ والحرص على وحدة الأرض والشعب . فالنكسة لا تجىء إلا نتيجة لخلل يصيب هذه الوحدة .

وقال الملك خوفو :

ـ على مصر أن تؤمن بالعمل ، به شيدّت الهرم ، وبه تواصل البناء .

وقال أمحتب وزير الملك زوسر :

ـ وأن تؤمن بالعلم ، فهو القوة التى حققت خلودها .

وقال الحكيم بتاح حتب :

ـ وأن تؤمن بالحكمة والأدب لتنعم بنضارة الحياة ، وتنهل من رحيقها .

وقال أبنوم :

ـ وأن تؤمن بالشعب والثورة ، لتتابع مسيرتها نحو الكمال .

وقال الملك تحتمس الثالث :

ـ وأن تؤمن بالقوة التى تتحقق حين تلتحم بجيرانها .

وقال سعد زغلول :

ـ وأن يكون الحكم فيها من الشعب ، وبالشعب ، ومن أجل الشعب .

وقال جمال عبد الناصر :

ـ وأن تقوم العلاقات بين الناس على أساس العدالة الاجتماعية المطلقة .

وقال أنور السادات :

ـ وأن يكون هدفها الحضارة والسلام .

وهنا قالت إيزيس :

ـ ليضرع كل منكم إلى إلهه ، أن يهب أهل مصر الحكمة والقوة ، لتبقى على الزمان .. منارة الهدى والجمال .

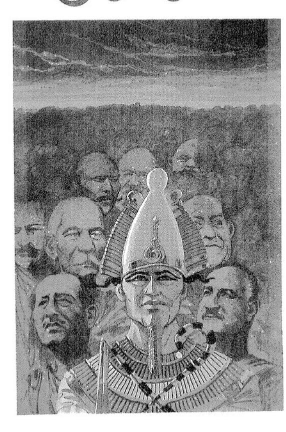
فبسط الجميع أكفهم ، واستغرقوا فى الدعاء .

رقم الإيداع : ٨٦١٤/٨٩
الترقيم الدولى : ٦ - ٣٣٦ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

أمام العرش



القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ــ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ــ ٣٩٣٤٨١٤
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ــ هاتف ٣١٥٨٥٩ ــ ٨١٧٧٦٥ ــ ٨١٧٢١٣

هذا الكتاب

● شرفت دار الشروق ، وحصلت من الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ ، على حق إصدار أعماله الأدبية للأطفال .

● ورأينا أن نبدأ برواياته التاريخية ، لتعرف منها أجيالنا الجديدة مسيرة تاريخهم ، وما صنعه الأجداد من حضارة سبقت كل الحضارات .

● فأصدرنا :

١ ــ عجائب الأقدار . ٢ ــ كفاح طيبة .
٣ ــ كفاح أحمس .

● واليوم نصدر « أمام العرش » .. المحاكمة التاريخية لحكام مصر وقادتها من الملك مينا حتى أنور السادات .

● وتمت اختياراتنا لمحاكمات كل الحكام والقادة الذين كانت لهم أدوارهم الرائدة والفاعلة والتى صنعت تاريخ مصر ، منذ كان لها تاريخ ، حتى اليوم .

● إن « أمام العرش » الذى نقدمه ، هو موسوعة تاريخية ، وتربية وطنية لأجيالنا الجديدة .. ليتعلموا منها الكثير الذى يثبّت إيمانهم بمصرهم ، ويحضّهم على العطاء الصادق المخلص لها .. أسوة بالسابقين من أبنائها الخالدين .

● وكما التزمنا .. قمنا بتيسير الرواية وتبسيطها ، وتقديمها وفق المتطلبات التربوية والفنية .. مع الحرص على أن تظل بنفس بنائها وأحداثها وشخصياتها .. وإلى حد كبير ، نفس لغتها وأسلوبها .. الأمر الذى يجعل الرواية ، بصيغتها هذه ، يقرؤها الناشئون بفهم تام ، ويستمتعون بأحداثها كاملة ، ويسعدون أنهم تجاوزوا قراءة القصة .. إلى قراءة الرواية .

● وإذا كانت رقعة القراءة عالميا ، لكاتبنا الكبير ، قد اتسعت وتضاعفت بعد حصوله على جائزة نوبل العالمية للأدب ، وأصبحت أعماله تترجم إلى كل لغات العالم ..

فإن دار الشروق يسعدها أن يسهم مشروعها هذا ، فى أن تتسع رقعة القراءة عربيا ، لكاتبنا الكبير ، وتمتدّ لتشمل القاعدة العريضة من أجيالنا الجديدة .. ذخيرتنا وعدّتنا للمستقبل .

والله ولىّ التوفيق ،

